الماركسية والجزائر

مَاركسْ - انجلْز

ترجَمَة :

جورج طرابيشي



دار الطليعة - بيروت

الماركسيّة والجزائر

ماركس - انجلز

الماركسية والجزائر

ترجمة:
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

ص.ب ١١١٨١٣
بيروت ـ لبنان

الطبعة الاولى
آب (اغسطس) ١٩٧٨

الماركسية والجزائر

هذه النصوص ، رغم انها تتعلق مباشرة بمسألة عربية ، لم تأخذ طريقها حتى الآن الى النشر باللغة العربية .

النص الوحيد الذي نشر منها بالعربية ، وهو مقال «الجزائر» لانجلز ، لم ينشر الا بعد ان حذفت منه فقرات واسعة جردته من طابعه « المحرج » ، ان جاز القول (١) .

وحتى نضع ايدينا من الآن على موضع « الاحراج » في هذه النصوص ، يكفي ان نذكر ان انجلز في مقاله لعام ١٨٤٨ — وهو نفس العام الذي صدر فيه **البيان الشيوعي** — عن الامير عبدالقادر

---

(١) النص المبتور منشور في مجموعة « حول الاستعمار » لماركس وانجلز ، ترجمة د. فؤاد ايوب ، دار دمشق (بلا تاريخ) . وهذه الترجمة العربية منقولة عن الترجمتين الانكليزية والفرنسية الصادرتين عن دار النشر باللغات الاجنبية في موسكو . وطبيعي ان النص فيهما ايضا مبتور .

الجزائري ، يقول بلا ادنى مواربة ان اسر الفرنسيين للزعيم العربي كان من « حسن التوفيق الكبير » لان فتح الجزائر ، على الرغم من الكيفية « الفظة » التي ادار بها الفرنسيون الحرب ، كان عمــلا « موائما لتقدم الحضارة » .

اذن فموضع الاحراج في هذه النصوص يكمن على وجــه التحديد في تنافيها الجزئي او الكلي مع الصورة المكونة في الاذهان عن ماركس وانجلز بوصفهما نصيرين غير مشروطين لحركة تحرر الشعوب في كل زمان ومكان ، وعدوين غير مشروطين للاستعمــار وشروره .

والواقع ، وخلافا المتوقع من هذه الصورة المكونة ، لم يطرح ماركس وانجلز قط مسألة الجزائر بوصفها مسألة قوميــة ذات ارتباط بالحركة التاريخية العامة لتحرر شعوب المستعمرات .

والواقع ايضا ان حقل رؤية ـ وعمل ـ ماركس وانجلز كان حقلا اوروبيا ، واوروبية كذلك كانت حدود معرفتهما .

ولان الصورة المكونة عن ماركس وانجلز كانت ايديولوجيــة اكثر منها تاريخية وعقلانية ، فقد ألبسا ـ وهما ابنا القرن التاسع عشر ـ ثوبا جرى تفصيله في القرن العشرين على يد لينين ، منظّر عصر الامبريالية ، وممذهب الماركسية وصائغ شموليتها .

وبدلا من تصحيح الثوب ، جرى تعديل المقاس ذاته ، فحجبت عن الانظار جميع النصوص والوقائع التي قد تنم عن ان الثوب مفصل لغير لابسيه .

وهذا ما يفسر ان تكون النصوص التي يضمها هذا الكتــاب قد عانت لاكثر من مئة عام من مصير الهجر ، وحتى الاخفاء .

وفي هذا الزمن ـ او بالاحرى اللازمن ـ العربي الذي انحطت فيه الماركسية على ايدي بعضهم من اداة تحليل ملموس للواقــع الملموس الى ايديولوجيا تموه الواقع وتمــوه العجز عن الفعل

فيه (١) ، يمكن ان يأتي نشر هذه النصوص مساعدا على اعـــادة اكتشاف مقولة الواقع ، بما فيه واقع الماركسية بالذات ، كخطوة اولى واساسية نحو رد الاعتبار الى العقلانية المسحوبة من التداول في هذا اللازمن العربي .

وحتى نكون عقلانيين في تعاملنا مع هذه النصوص ، فلا نحرج بها ولا نتخذها بالمقابل وسيلة للتشهير ، ينبغي ان نضع نصـب اعيننا الملاحظات التالية :

اولا ــ لقد كتب ماركس وانجلز هذه النصوص في عصر مــا قبل الامبريالية ، وبالتالي قبل ان تنطرح من منظور ثوري مسألة تحرر البلدان المستعمرة .

ثانيا ــ ان تصور ماركس وانجلز للاستعمار ، وعلى الاخص لاستعمار الجزائر ، هو تصور قد تقادم عليه الزمن ، وقد كان القرن التاسع عشر نفسه فرصته الاخيرة للحياة . فالاستعمار في تصور ماركس وانجلز هو استيطان المعمرين ، وهو مظهر من مظاهر الهجرات الاوروبية التي دشنــــها اكتشاف القــارة الاميركية . والنموذج الامثل لهذا الاستعمار هو الولايات المتحدة الاميركية .

وانما بالاستناد الى هذا المثال الاميركي الناجح ، ينوه ماركس وانجلز في اكثر من موضع بفشل الاستعمار الفرنسي للجزائر .

ثالثا ــ ان تأويل ماركس وانجلز لهذا الاستعمار هو تأويل اقتصادي صرف لا يتوقف الا عند استغلال المواد الاولية والموارد الزراعية . فالاستعمار مرتبط بتوسع الراسمالية ، وهو تعبير عن تقدمها ، والتغيرات الاجتماعية التي يحدثها في البلدان المستعمرة

---

(١) مشاطرة في ذلك مصائر الايديولوجيا القوموية ، ومن قبلها الايديولوجيـا التقليدية او السلفية .

يجب ان تفهم على ضوء مقولة « الراسمالية » ، لا على ضوء الفروق المجتمعية او الهيمنة الثقافية مثلا .

رابعا ـ ما دامت الراسمالية (ومن ثم نفيها الاشتراكي) هي « الحضارة » ، فان الاستعمار هو وجه للمسيرة العالمية باتجاه هذه الاخيرة . انه عامل تقدم . ولا يتردد ماركس وانجلز ، ورثة فلسفة الانوار ومتابعاها ، في اطلاق صفة «البربرية» او «الوهجية» ـ وهما تعبيران كانا رائجين لدى فلاسفة القرن الثامن عشر الماديين ـ على كل ما هو غير « الحضارة » ، اي عمليا على كل ما هو غير راسمالي . وهذا واضح ، كأجلى ما يكون الوضوح ، في تثمين انجلز للفتح الفرنسي للجزائر على انه عمل « موائم لتقدم الحضارة » . لكن لا بد من الاشارة ايضا الى ان ماركس يبدي ، في اواخر حياته على الاقل ، بعض التردد في اطلاق حكم كذلك ، وذلك في هوامشه على كتاب كوفاليفسكي عن اشكال **الملكية الجماعية للارض** . فالمستعمرون في هذه الهوامش ، لا يعودون « معمرين » وحاملي انوار وبناة حضارة ورواد تقدم ، بل يأخذون بعدهم الواقعي كلصوص نهابين ـ « بنات آوى » على حد تعبير ماركس ـ لا همّ لهم ، باسم نشر الملكية الخاصة « الحضارية » ، الا ان يصادروا ملكية اهالي البلاد ، مع ان هذه الملكية ، وفي شكلها الجماعي او المشاعي ، قد تكون ، من وجهة نظر الحضارة بالذات ، اكثر تقدما واكثر مواءمة لشكل غير رأسمالي للتطور التاريخي .

خامسا ـ ما دام تحليل الاستعمار اقتصاديا صرفا، فان ادانة « الكيفية الفظة » التي تتم بها الفتوحات الاستعمارية تبقى مجرد ادانة اخلاقية ، وبعبارة اخرى ، ان الاستعمار لا وجود له كمشكلة سياسية ، وكم بالاحرى كمشكلة قومية. والحق انماركس وانجلز لم يعترفا بالصفة القومية للمسألة الكولونيالية الا في مثال يتيم : ارلندا . والحال ان هذا المثال اوروبي ، وهو بالتالي يؤكد الحدود

الاوروبية لرؤية ماركس وانجلز ولا يوسعها . ولينين ـ ومعه روزا لوكسمبورج ـ هو اول من سيطبق على فرنسا والجزائر ما كان ماركس وانجلز قالاه عن انكلترا وارلندا . وبعبارة اخرى ، ان واقعة « الامة » ، المهملة في التحليل الماركسي ـ الانجلزي للاستعمار ، ستعاود احتلال مكانها في التحليل اللينيني للامبريالية. وهنا لن تعود المسألة الكولونيالية مسألة نهب للمواد الاولية والموارد الزراعية فحسب ، بل كذلك مسألة هيمنة ثقافية وقومية . وهنا لن تعود الادانة **الاخلاقية** للفظاظة الاستعمارية كافية ، بل ستشهر عاليا راية « حق الامم في تقرير مصيرها » ـ وهو بالاساس حق **سياسي** . وهنا اخيرا ستسحب من التداول مصطلحات «البربرية» و « الهمجية » ، او سترد بالاحرى الى نحور « المتحضرين » . ف « البرابرة » انما هم فقط المستعمرون الاوروبيون الذين يريدون ان يمنعوا آسيا وافريقيا من الاستيقاظ . وذلك هو المغزى العميق اصلا لعنوان مقال للينين في عام ١٩١٣ : **اوروبا المتأخرة وآسيا المتقدمة** .

***

بقي ان نوضح نقطة اخيرة .

ان النصوص التي نقدمها هنا الى القارىء العربي قد جمعها وترجمها الى الفرنسية وعلق عليها رينيه غاليسو ـ بالتعاون مع جلبير باديا ـ وهو من كبار الاختصاصيين الفرنسيين في تاريخ شمال افريقيا . وقد اصدر حتى الآن ، بالاضافة الى « الماركسية والجزائر » ، « اقتصاد شمال افريقيا » و « ارباب العمل الاوروبيون في المغرب . العمل الاجتماعي والعمل السياسي ١٩٣١ ـ ١٩٤٢ » و « عبد الكريم وجمهورية الريف » . كما صدرت تحت اشرافه مجموعة « حول الاقطاع » عن « مركز

الدراسات والابحاث الماركسية» التابع للحزب الشيوعي الفرنسي. وقد اعتمدنا في هذه المقدمة ، وكذلك في الهوامش على النصوص ؛ اعتمادا اساسيا على تحليـــلات رينيه غاليسو وجلبير باديـــا وتعليقاتهما .

ج. ط.

عبد القادر (١)

فريدريك انجلز

ان الموضوع الآخر الذي تمتلىء به اعمدة الصحف هو اسر

---

(١) كان انجلز ، منذ عهد اقامته في انكلترا في عام ١٨٤٣ ، على صلة وتراسل مع صحيفة نورثرن ستار (نجمة الشمال) ، وهي صحيفة انكليزية شارتية (ميثاقية) . واثناء اقامته في باريس (١٨٤٦ — ١٨٤٨) كان يقوم بين الحين والآخر بعرض للصحافة الباريسية على صفحات نورثرن ستار . وفي رسالته الصحفية المنشورة في ٢٢ كانون الثاني ١٨٤٨ كتب عن موضوع استسلام الامير عبد القادر الجزائري للسلطات الفرنسية . وكان عبد القادر قد التجأ الى المغرب مع من تبقى معه من رجاله ، بعد حرب خاضها على مدى سبع سنوات ضد جيش فرنسي بلغ تعداده ١٠٠٠٠٠ رجل . وتحت ضغط الانكليز أبعده سلطان مراكش الى الريف ، ثم الى منطقة الحدود مع=

عبد القادر ، والقرار الذي يتوجب على الحكومة اتخاذه بصدد مستقبل اقامته. وليس ثمة من شك في انهم سيؤكدون وسينفذون وعد دوق دومال وسيرسلون الامير الى مصر . والغريب في الامر ان جميع صحف المعارضة تقريبـــا ، من الـ « ناسيونال » الى الـ « كونستيتوسيونال » (٢) ، قد طالبت بنقض ذلك الوعـد . والآن ، لم يعد هناك من شك في ان ذلك الوعد قد قطع مشروطا ، اذ ترك للحكومة الحرية في الالتزام او عدم الالتزام به . ورفضه

= الجزائر . واحتجاجا على المجازر التي ارتكبها جنود السلطان قرر عبد القادر ان يضع مصيره بين ايدي الفرنسيين . وفي ٢٣ كانون الاول ١٨٤٧ تفاوض مع القائد الفرنسي لاموريسيير على موضوع استسلامه ، مقابل تعهـــد الفرنسيين بالسماح له بالسفر الى الاسكندرية او الى عكا . وقد قطع له الجنرال لاموريسيير عهدا بذلك بعد ان اعطاه « الامان » . وقد استشار لاموريسيير في ذلك قائد القوات الفرنسية في افريقيا دوق دومال ، ابن الملك لوي فيليب . وقد انتهزت الصحف الفرنسية المعارضة لحكم اوي فيليب وللحكومة التي كان يرئسها غيزو الفرصة لتشن هجوما على دوق دومـــال و « الوعود الخطرة » التي قطعها ، معتبرة ذلك مظهرا من مظاهر ســـوء استعمال السلطة من قبل اسرة اورليانس المالكة . وقد اتت الحملة الصحفية ثمارها ، اذ نكثت الحكومة الفرنسية بوعودها وابقت على الامير عبد القادر قيد الاعتقال في فرنسا حتى عام ١٨٥٢ . وقد كتب انجلز مقالته تعليقا على المناقشات التي كانت تدور يومئذ في مجلس النواب وعلى صفحات الصحف بخصوص استسلام عبد القادم . «م»

(٢) الكونستيتوسيونال (الدستوري) : صحيفة من اليسار الوسط ذات اتجاه بورجوازي ليبرالي. اما الناسيونال (القومي) فقد لعبت دورا كبيرا في ثورة ١٨٣٠ ، وكانت الناطقة الاولى بلسان المعارضة الجمهورية . «م»

لن يعني بصورة مباشرة ، كما قالت الـ « سان » (٣) ، عملا شائنا . لكن ليس ثمة من شك ايضا في ان عملا كهذا من قبل حكومـــة اخرى ، وعلى الاخص من قبل الحكومة الانكليزية ، كان سيعتبر من قبل تلك الصحف نفسها خيانة منكرة . ومـــا دام قد بات من المستحيل العودة الى الوضـــع الذي كانت عليه الامور حين استسلم عبد القادر استسلاما مشروطا ، فمن الواضح ان التأبي عن تثبيت شروط الاستسلام سيكون بمثابة دليل على انعدام كبير في الشهامة . لكن هذهالصحف القومية النزعة مصابةبالعمى بصدد هذه المسائل ، فهي لن تتوانى عن ارتكاب نفس الاعمال التي تدينها حينما يرتكبها الآخرون . والصحيفتان الوحيدتان اللتان نطقتا في صالح تثبيت الاتفاق مع عبد القادر هما «لابرس» و«لا ريفورم»(٤) فالصحيفة الاولى ، وهي ملكية الاتجاه ، ارادت تثبيت ذلك الاتفاق لانه لا يجوز للحكومة ان تنكث بكلمة قطعها ابن ملك ؛ ابن من الاسرة المالكة الفرنسية ، وعلى هذا النحو أحيت الصحيفة من جديد اللقب القديم الذي كان يطلق قبل الثورة على الامير ذي الدم الملكي . وبالمقابل تقول « لا ريفورم » : « كلا ، فالمسألة دقيقة ، فشرف بلدنا هو موضوع الرهان ، وفي مسألة كهذه يجدر بنا ان نغاليفيالشهامة لا ان نغالي في صغار النفس ، وان نثبت بالتالي الوعد الذي قطع ولو كان من قطعه اميرا » . ومرة اخرى ، كانت « لا ريفورم » هي

---

(٣) السان (الشمس) : صحيفة اميركية خفيفة ، ومن اولى صحف الاثارة . وكانت تنشر انباء الخارج تلبية لرغبـات قرائهـــا من المهاجرين الاوروبيي الاصل . «م»

(٤) لابرس (الصحافة) : صحيفة يمينية واسعة التوزيع . امـا لاريفـــورم (الاصلاح) فكانت جمهورية راديكالية وذات ميول اشتراكية . وكانت مـن الصحف التي هيأت الجو لثورة ١٨٤٨ . «م»

التي اخذت وجهة النظر الصحيحة في هذه القضية .

ان رأينا ، بالاجمال ، هو ان من حسن التوفيق الكبير ان يكون الزعيم العربي قد اسر . فقد كان صراع البدو بلا امل ، وعلى الرغم من ان الكيفية التي ادار بها الحرب جنود افظاظ من امثال بوجو (٥) تستأهل الادانة الشديدة ، فان فتح الجزائر واقعة مهمة وموائمة لتقدم الحضارة . وما كانت قرصنات الدول البربرية ، التي لم تعترض عليها الحكومة الانكليزية ما دامت لا تضايق مراكبها ، لتتوقف الا بفتح تلك الدول . ولقد كان فتح الجزائر قد ارغم بايات تونس وطرابلس ، وكذلك امبراطور مراكش ، على الانخراط في طريق الحضارة . فقد اضطروا الى البحث عن شواغل اخرى لشعوبهم غير القرصنة ، وعن وسائل اخرى لملء خزائنهم غير الاتاوات التي تدفعها دول اوروبا الاصغر شأنا . واذا كان من الممكن ان نأسف على ما اصاب الحرية من دمار ، فلا يجوز ان ننسى ان اولئك البدو انفسهم هم شعب من اللصوص ، وسائلهم الرئيسية للعيش هي غزو بعضهم بعضا ، او غزو القرويين الحضر ، ناهبين ما يجدونه ، ومعملين يد التقتيل في كل من يقاوم ، وبائعين باقي الاسرى كعبيد . ان جميع شعوب البربر الاحرار هؤلاء يبدون للناظر من بعيد في غاية العزة والنبل والبهاء ، ولكن ما عليك الا ان تقترب منهم حتى تكتشف ان الشره الى الكسب هو دافعهم ومحركهم ، مثلهم مثل الامم الاكثر تحضرا ، وكل ما في الامر انهم يلجؤون الى وسائل اكثر فجاجة وفظاظة .

---

(٥) توما بوجو : ماريشال فرنسي ، ارستقراطي الاصل ، اكمل فتح الجزائر في ١٨٤٠ – ١٨٤٧ وقهر المغاربة في ١٨٤٤ . راجع نص ماركس اللاحق عن سيرة حياة بوجو . «م»

وبعد كل حساب ، فان البورجوازي المعاصر ، مع الحضارة والصناعة والنظام و « الانوار » التي يحملها معه على كل حال ، لأفضل من المولى الاقطاعي او اللص قاطع الطريق ؛ ومن الطور الهمجي من المجتمع الذي ينتميان اليه .

الجزائر (١)

فريدريك انجلز

الجزائر، قسم من افريقيا الشمالية، كانت فيما مضى باشوية

---

(١) في ايلول ١٨٥٧ كتب انجلز بتكليف من « الموسوعة الاميركية الجديدة » مقاله الكبير المعروف باسم « الجزائر » . وقد اقتبس انجلز معلوماته من المعاجم ، وبخاصة من مادة « الجزائر » في معجم ويغاند الذي صدر في لايبزغ عام ١٨٤٦ . ويظهر اثر هذا الاقتباس في بعض الاخطاء وفي مراكمة المعلومات التي يتضمنها القسم الاول من المقال . وبالمقابل ، فان القسم الثاني يتميز بوضوح العرض وتماسكه ، وبالصفة الراهنة لمعطياته ، وبخاصة تلك المتعلقة منها بالعمليات العسكرية وبالمناقشات البرلمانية ، وهي امور كان يتابعها انجلز في الصحافة اليومية ويبدي فيها على صفحات الصحف ايضا آراء تتميز بالاصالة الشخصية . والجدير بالذكر ان مقال انجلز قد حذفت=

تركية تابعة لباشا مدينة الجزائر ، لكنها دخلت منذ ١٨٣٠ في عداد اقاليم ما وراء البحار الخاضعة للسيطرة الفرنسية . يحد الجزائر من الشمال البحر الابيض المتوسط ، ومن الشرق تونس ، ومن الغرب مراكش ، ومن الجنوب الصحراء الكبرى . وفي اكبر امتداد لها ، من الشرق الى الغرب ، يبلغ طولها ٥٠٠ ميل ، ومن الشمال الى الجنوب ٢٠٠ ميل . وتشكل سلسلة جبال الاطلس احدى ابرز خصائص تضاريس هذا البلد : فهو يفصل عن الصحراء الاراضي المزروعة التي تحاذي الساحل . وتتجه السلسلة الرئيسية شرقا – غربا ، لكن تتفرع من هذه السلسلة المركزية ، في جميع انحاء البلاد ، استطالات في جميع الاتجاهات . واعلى قمة في القسم الغربي هي جبل فانا شري ، او Mons Zabeacus المنسوب الى بطليموس ، واعلى المرتفعات في القسم الشرقي هي مرتفعات جرجورة والاهراس . ويصل ارتفاع هذه الجبال الى حوالي ٧٠٠٠ قدم . واهم نهر هو نهر الشليف . وتوجد كذلك انهار ذات طول لا يستهان به تنبع من السفح الجنوبي للاطلس وتغيب في الصحراء. ولا يصلح اي من هذه الانهار للملاحة . وفي الصيف ، تؤول الى جفاف شبه تام ، لكنها في الربيع ، تغرق مساحات شاسعة فتخصب تربتها .

يقدر بعض الرحالة ان مناخ البلد صحي . والتهابات العيون

= منه المقاطع المتعلقة بالامير عبد القادر ، لان الموسوعة الاميركية كانت قد كلفت شخصا آخر بالكتابة عن عبد القادر . ومن سوء الحظ ان اصل النص الانكليزي الذي كتب في منتصف ايلول ١٨٥٧ قد فقد ، بينما النص الوحيد المعروف هو ذاك الذي نشر في المجلد الاول من « الموسوعة الاميركية الجديدة » عام ١٨٥٨ . «م»

والامراض الجلدية منتشرة فيه على نطاق واسع . وثمة زعم يقول انه لا وجود في الجزائر لحميات ذات صفة استيطانية ، لكن العدد الكبير من الجنود الفرنسيين الذين يسقطون ضحايا الاوبئة يسمح لنا بلا جدال باستنتاج نتيجة مغايرة تماما . الهواء نقي وصاف ، وفصول الصيف حارة جدا ، ولا يندر ان يكون الشتاء قاسيا للغاية ، ولا سيما في الجبال . والارض ، عند تخوم الصحراء ، رملية وجدباء ، لكنها خصبة في الاقاليم التي تمتد بين السلاسل الجبلية، وبخاصة بمحاذاة الانهار. ونلفى في الجزائر جميع صنوف الحبوب ، والفاكهة الاوروبية والجنوبية ، وازهارا ، وعلى الاخص الورد الرائع الجمال ، بالاضافة الى صنف من قصب السكر يقال انه من أكبر الصنوف المعروفة جميعا واغناها بالسكر . والخيل ، بلا جدال ، ممتازة ، ويكثر استخدام الحمير ، وهي جميلة القوام، كحيوانات ركوب ، ويسترعي الجمل الجزائري والجمل الوحيد السنام الانتباه . ويشكل ضأن مرينوس (٢) نوعا بلديا – وبالاصل تستورد اسبانيا من الجزائر خرافها – وكذلك شأن وشق نوميديا والفهد والعسبر (٣) . ويكثر في البلاد النعام والعقارب والثعابين وغيرها من الزواحف السامة .

من المعتقد ان البربر او القبائليين او الامازغ (٤) – وهم

(٢) هو ضأن بني مرين . ومع ان الشائع ان اصله اسباني ، لكنه في الحقيقة ، وكما يدل اسمه ، من اصل مغربي . وصوفه ناعم ومطلوب . «م»

(٣) نوميديا : من الاسماء الموروثة عن الحقبة الاغريقية – الرومانية . اما الوشق والعسبر فنوعان من الفهود . «م»

(٤) الامازغ لفظ بربري كان يشار به الى الاسر الكبيرة ، ومعناه « احرار الرجال » او « نبلاؤهم » .

يعرفون بهذه التسمية المثلثة ــ هم أول من قطن الجزائر . ولسنا نعرف الشيء الكثير عن تاريخهم كعرق ، سوى انهم كانوا يسكنون في الماضي كل افريقيا الشمالية الغربية ، وانهم يتواجدون ايضا في الساحل الشرقي . يحيا القبائليون في المناطق الجبلية . اما السكان الباقون فهم من العرب ، احفاد الفاتحين المسلمين . واننا لنجد كذلك في الجزائر مغاربة ، واتراكا ، وكولوغليين (٥) ، ويهودا ، وزنوجا ، واخيرا فرنسيين .

في عام ١٨٥٢ كان تعداد السكان ٢.٠٧٨.٠٣٥ نسمة ، منهم ١٣٤١١٥ (٦) اوروبيا من جنسيات شتى ، وهذا بالاضافة الى جيش من ١٠٠٠٠٠ رجل . ويشكل القبائليون شعبا نشيطا يحيا في قرى حقيقية : وفضلا عن كونهم زراعا ممتازين ، فانهم يعملون أيضا في المناجم ، ويحولون المعادن ، ويملكون ورشات لنسج الصوف والقطن، وهم يصنعون بارود المدافع والصابون ، ويجمعون العسل والشمع ، ويزودون المدن بالدواجن والفاكهة وغيرها من المنتجات الغذائية . اما العرب، الاوفياء لأعراف اسلافهم، فيحيون حياة بدوية ، متنقلين مع خيامهم وفقا لمتطلبات المرعى وظروف اخرى . ولعل المغاربة (٧) ، من بين سائر السكان، هم اقلهم جدارة

---

(٥) كولوغليون : خلاسيون مولودون من آباء اتراك وامهات جزائريات . «م»

(٦) التعداد الرسمي للسكان في عام ١٨٥١ اعطى رقم ٢٣٢٤٠٠٠ ل « السكان الاصليين » و ١٣١٠٠٠ للاوروبيين ، ومنهم ٦٦٠٠٠ فرنسي . وارقام هذا التعداد ، وكذلك ارقام انجلز ، لا تتميز بالدقة ، لان ثمة مناطق كثيرة السكان بقيت آنئذ بعيدة عن منال الفرنسيين . «م»

(٧) كانت كلمة « المغاربة » Maures تشير في البدء الى سكان غربي المغرب، وعلى الاخص سكان المدن الذين شكلوا فيما بعد مجموعات تجارية في العديد من مدن المغرب . وفي المدن الجزائرية كانت البورجوازية التجارية المسلمة دينا والمسماة بـ « المغربية » تتقاسم حرفتها مع البورجوازية اليهودية دينا ومع الأسر العربية التي غادرت اسبانيا بعد استردادها من قبل الاسبان. «م»

بالاحترام . فهم يعيشون في المدن ، ويميلون اكثر من العرب او القبائليين الى حياة الترف . وكان الاضطهاد الطويل الامد الذي عانوا منه على ايدي الحاكمين الاتراك قد جعل منهم عرقا جبانا ، وان احتفظوا مع ذلك بعاداتهم المتأصلة على القسوة والانتقام . اما على الصعيد الاخلاقي فانهم يحتلون منه ادنى مستوياته .

المدن الرئيسية هي الجزائر العاصمة ، وقسطنطينة التي يبلغ تعداد سكانها زهاء ٢٠٠٠٠ نسمة ، وبونة (٨) وهي مدينة محصنة تقع على الساحل كان سكانها يعدون ١٠٠٠٠ نسمة في عام ١٨٤٧ . وعلى مقربة منها توجد مصائد المرجان التي يؤمها الصيادون القادمون من فرنسا وايطاليا (٩) . وتقع بجاية على الخليج الذي يحمل الاسم نفسه . وقد عجل في الاستيلاء على هذه البلدة اعمال العنف التي ارتكبها القبائليون في الجوار : فقد تسببوا في غرق سفينة شراعية فرنسية بقطع حبل مرساتها ، ثم نهبوها وقتلوا بحارتها (١٠) .

نلفى في داخل البلاد ، وبخاصة في اقليم قسطنطينة ، بقايا

---

(٨) وهي مدينة عنابة . «م»

(٩) تقع المصائد المرجانية المشار اليها غرب عنابة ، وقد منح حق استثمارها في عام ١٨٣٠ لـ « شركة افريقيا » التي كانت تضم مصالح ايطالية وفرنسية. وقد اقام الفرنسيون تحصينات تساعدهم على مراقبة الساحل . «م»

(١٠) في عام ١٨٢٩ غرق مركب فرنسي على ذلك الساحل . اما في عام ١٨٣٣ فقد غرق مركب انكليزي . وازاء احتمال تدخل بريطاني سارع القائد الفرنسي بالاستيلاء على المدينة . وقد فاوضه وفد « مغربي وقبائلي » على تسليم بجاية مقابل امتيازات تجارية . ووقع الهجوم في ايلول ١٨٣٣ ، وصمدت المدينة خمسة ايام رغم الامدادات التي وصلت للفرنسيين الذين لم يحتلوها الا بعد ان هجرها سكانها . «م»

العهود الرومانية القديمة ، ونخص بالذكر خرائب مدينة لامبيسا القديمة، حيث لا تزال قائمة بصورة جزئية ابواب المدينة ومدرجها، وهناك ايضا قبر ضخم يقوم على اعمدة كورنثية. وتقع على الساحل ايضا الغالة وشرشال ، أي جوليا القيصرية القديمة : وهي مدينة تتسم ببعض الاهمية بالنسبة الى الفرنسيين . فقد كانت مقر جوبا (١١) ، وما تزال في ضواحيها بقايا آثار قديمة . اما وهران فمدينة محصنة بقيت حتى عام ١٧٩٢ في ايدي الاسبان . وتقع تلمسان ، التي كانت فيما مضى مقر عبد القادر ، في بقعة خصبة ، وقد دمرت المدينة القديمة من جراء حريق عام ١٦٧٠ ، كما دمر الفرنسيون المدينة الجديدة بتمامها تقريبا . وفيها يصنع السجاد والاغطية الصوفية . وفي جنوبي الاطلس يمتد الزاب (١٢) ، اي غاتوليا القديمة . واهم تجمعاته السكانية بسكره التي يعرف اهلها بانهم قوم مسالمون ، يتمتعون بحظوة وتقدير في موانىء الساحل الشمالي حيث يعملون كحمالين وخدم .

لقد فتح الجزائر ، على التوالي ، الرومان والفانداليون والعرب . وحينما طرد المغاربة من اسبانيا عام ١٤٩٢ ، نظم فردينان (١٣) حملة على الجزائر ، وبعد ان استولى على وهران ،

---

(١١) في عام ٢٥ م عين الامبراطور الروماني اوغوسطوس جوبا الثاني على رأس مملكة موريتانيا ، فتزوج من كليوبترا سيليني ، ابنة كليوبترا الشهيرة وانطونيوس ، وجعل عاصمته شرشال باسم : جوليا القيصرية . «م»

(١٢) المقصود جبل الزاب وواحة زيبان . «م»

(١٣) وجه فردينان الكاثوليكي ابتداء من ١٥٠٥ عدة حملات ضد مراكش ، مكنته من السيطرة على المواقع الحصينة ، وخاصة الموانىء . اما مدينة الجزائر فلم يتمكن من السيطرة الا على جزيرة صخرية صغيرة فيها .

وبجاية ومدينة الجزائر ، هدد باخضاع البلاد قاطبة . ولم يكن سليم العتيمي (١٤) ، امير متيجة ، وهو سهل خصيب يمتد بمحاذاة مدينة الجزائر ، بأهل لمواجهة الغازي القوي ، ولذا استنجد بالاتراك ، فأرسل هؤلاء لنجدته القرصان الشهير بربروس هوروك (١٥) . ووصل هوروك بحرا عام ١٥١٦ ، وبعد ان استولى على البلاد وقتل بيده سليم العتيمي ، هاجم الاسبان وبعد سلسلة من العمليات العسكرية الموفقة وغير الموفقة على التوالي ، اضطر الى الانسحاب الى تلمسان . فحاصر جيش اسباني هذا الموقع ، وتمكن من اسره وتنفيذ الاعدام فيه عام ١٥١٨ . وخلف هوروك اخوه خير الدين . وبعد ان استنجد بالسلطان سليم الاول، اعترف بتبعيته لهذا الامير . وعقب ذلك ، عينه هذا الاخير باشا على الجزائر ، وبعث اليه بقوات تمكن بفضلها من رد الاسبان على اعقابهم ، ونصب في نهاية المطاف نفسه سيدا على البلاد . وقد عادت عليه اغارته على المسيحيين في البحر الابيض المتوسط بلقب قبطان باشا الذي اسبغه عليه سليمان الاول . وقد قام شارل الخامس بمحاولة لاعادة السيادة الاسبانية ، وفي عام ١٥٤١ اجتازت البحر الابيض المتوسط حملة قوامها ٣٠٠٠٠ تقلهم ٣٧٠ سفينة (١٦)

---

(١٤) هو سالم الطورمي ، شيخ سكان الجزائر ، وقد استنجد بالقرصان التركي، اليوناني الاصل ، عروج . «م»

(١٥) هو عروج . حاصره الاسبان لمدة ستة اشهر في تلمسان ، لكنه تمكن من الافلات . ثم لم يلبث ان قتل عام ١٥١٨ . وخلفه اخوه خير الدين الملقب ببربروس الذي هزم الاسبان ، ثم انضم الى الاسطول الفرنسي عام ١٨٤٣ ، وتوفي في القسطنطينية عام ١٥٤٦ . «م»

(١٦) ٣٧٠ سفينة لنقل العسكر فقط . اما مجمل تعداد سفن الاسطول الاسباني فكان ٥١٦ مركبا . «م»

لكن عاصفة رهيبة ، اعقبتها هزة ارضية ، شتتت الاسطول وقطعت الاتصالات بينه وبين الجيش الذي نـزل الى البر . واضطرت القوات ، تحت ضغط هجمات خصم جسور ، الى ركوب البحـر ثانية ، ولاذت بالفرار بعد ان فقدت ٨٠٠٠ رجل و١٥ مركبا حربيا و١٤٠ مركبا للنقل . وابتداء من ذلك التاريخ نشبت حرب غـوار متواصلة بين الدول البربرية وفرسان مالطة . ومنها ظهر الى حيز الوجود نظام القرصنة الذي عانت منه الدول المسيحية حقبة طويلة من الزمن (١٧) ، والذي جعل من القراصنة الجزائريين خصومـا مرهوبي الجانب في البحر الابيض المتوسط . وقد هاجم الانكليز بقيادة بليك ، والفرنسيون بقيادة دوكين ، والهولانديون ودول اخرى مدينة الجزائر في ازمان مختلفة ، ولما قصف دوكين المدينة مرتين على التوالي (١٨) ، بعث الداي بطلب القنصل الفرنسي الممثل للملك لويس الرابع عشر ، وحين عرف من القنصل تكلفة القصف قال له بلهجة ساخرة انه كان سيقدم على احراق المدينـة بنفسه لقـاء نصف ذلك المبلغ .

على الرغم (١٩) من الاجراءات المضادة التي كانت تأخذها الدول

---

(١٧) نلاحظ هنا ان انجلز يتبنى لغة العصر السائدة ، وهي لغة كانت تبرقـع الحملات الاستعمارية ببرقع ديني . «م»

(١٨) قصف بليك مدينة الجزائر في عام ١٦٧٢ ، ودوكين في عامي ١٦٨٢ و١٦٨٣ . وقد نجم عن قصفها سنة ١٦٨٢ زهاء ٥٠٠ قتيل . «م»

(١٩) المقاطع الاربعة التالية محذوفة من نص انجلز في الـ « نصوص حـول الاستعمار» لماركس وانجلز ، المنشورة في موسكو باللغتين الفرنسية والانكليزية وبالتالي من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق بعنوان «في الاستعمار» ولن يكون صعبا على القارىء العربي ان يفهم لماذا حذفت تلك المقاطع الاربعة. =

الاوروبية بصورة دائبة ، تواصلت الغارات . وما كانت سواحل اسبانيا وايطاليا ذاتها بمنجى من غارات القراصنة الذين كانـوا يواصلون عملياتهم الرهيبة من حرب ونهب . وكان الآلاف مـن الارقاء المسيحيين يذوقون الامرين في الجزائر باستمرار ، وقـد تكونت جمعيات تضم اشخاصا اتقياء وجعلت هدفها الصريح القيام برحلات من اوروبا الى الجزائر لافتداء الاسرى سنويا ، بفضـــل المبالغ التي تعهد بها اليها اسر المساجين (٢٠) . وفي اثناء ذلـــك كانت سيادة الحكومة التركية قد اضحت لفظية صرفا . فالدايات، الذين كان ينتخبهم الانكشارية ، اعلنوا استقلالهم عن البـــاب

= فانجلز يتحدث فيها بصفته اوروبيا ، وبصفة ان الجمهور الذي يخاطبه هو جمهور اميركي ومسيحي . وبالمقابل فان مجموعة « نصوص حول الاستعمار » يفترض فيها ان تكون نبراسا لحركات التحرر الوطني في العالم الثالث . ون هذه الزاوية ما كانت المقاطع الاربعة المحذوفة الا لتكون محرجة في لهجتها وفي مضمونها على حد سواء . «م»

(٢٠) من يقرأ هذه السطور يخيل اليه ان الحملات العسكريـــة الاوروبية على الجزائر ، وعلى افريقيا بوجه العموم ، كانت ستتوقف فيما لو توقفت غارات القراصنة ! ثم ان من يقرأ هذه السطور يخيل اليه ايضا ان القرصنة كانت وقفا على الجزائريين والاتراك و « المسلمين » عموما . والحال ان القرصنة كانت آنئذ ظاهرة اوروبية ايضا . واخيرا ، يتحدث انجلز عن بؤس مصير الارقاء المسيحيين في ولاية الجزائر . ومن دون مماراة في بؤس هذا المصير ، فان مصير الاسرى البربر او « المحمديين » في السجون الاوروبية «المسيحية» لم يكن اقل بؤسا ، اذ كانوا يوسمون بالحديد المحمى ويجبرون على انكار دينهم .. «م»

العالي (٢١) . وقد طرد الداي ابراهيم آخر باشا تركي في عـــام ١٧٠٥ ، وكان الانكشارية يسمون ، من خلال انتخابات يسودهـا جو صاخب ، قادة جددا ، ثم لا يلبثون ان يغتالوهم في غالب الاحيان اثناء الفتن وحركات التمرد . وكان هؤلاء الانكشاريـــة يختارون من بين المهاجرين الاتراك ، ولم يكن اي واحد من اهل البلد يقبل في صفوفهم ، بل ما كانوا يقبلون حتى بأبناء الانكشاريين الذين يولدون من نساء جزائريات . ولم يكن يندر ان يبعث الداي بهدايا الى استانبول دلالة على خضوعه الاسمي ، لكن جرى التوقف عن دفع الجزية بصورة نظامية ، وكان الاتراك ، المشتبكون مـــع الروس في منازعات متواصلة ، اضعف من ان يعاقبوا المتمردين في ذلك الاقليم النائي .

وعلى عاتق جمهورية الولايات المتحدة الفتية وقعت مهمـة بيان الطريق المفضي الى الغاء ذلك الجو الشنيع . فأثناء حروب الثورة الفرنسية والحملات النابوليونية ، تولت الاساطيل القوية التي كانت تمخر البحر الابيض المتوسط ، حماية التجـــارة ، واضطر الجزائريون لبرهة من الزمن الى وضع حـد لغزواتهم ، لكنهم استأنفوا غاراتهم ما ان استتب السلام من جديد . غـير ان الاميركيين الذين اضطروا ، حتى في عام ١٧٩٥ ، الى ان يحتـذوا بمثال الامم الاوروبية ويدفعوا للداي اعانات مالية حتى يقبـــل بالمحافظة على السلام ، رفضوا آنئذ اداء الجزية . وفي ١٨١٥ اسر عميد البحرية ديكاتور فرقاطة وسفينـــة شراعيـــة اثنـــاء معركة

---

(٢١) في هذا التعبير « اعلان الاستقلال عن الباب العالي » شيء من المبالغة . اذ ان القطيعة مع الباب العالي لم تكن في يوم من الايام تامة ، وقد بقيـــت الجزائر تابعة ، قانونيا على الاقل ، للامبراطورية العثمانية . «م»

بحرية ضد عمارة جزائرية ، فدخل الى خليج مدينة الجزائر واجبر الداي على تسليمه جميع الاسرى الاميركيين وعلى الامتناع عن المطالبة في المستقبل بأية جزية . واقتداء بهذا المثل الجريء قصف الانكليز ، بقيادة اللورد اكسموث ، المدينة في عام ١٨١٦ ، وأحالوها رمادا ، وارغموا الداي على تسليم الاسرى الذين كانوا بحوزته . لكن هذه العقوبة لم تضع حدا للقرصنة . ففي عام١٨٢٦ أسر الجزائريون علنا وجهارا مراكب ايطالية في البحر الابيض المتوسط ، بل توغلوا في غاراتهم حتى بحر الشمال (٢٢) .

في عام ١٨١٨ ، انتقلت السلطة الى يدي حسين بك . وحين نهب في عام ١٨٢٣ مقر القنصل الفرنسي ، وتعرضت مراكب تبحر تحت الراية الفرنسية اكثر من مرة للتفتيش ، طولب بتعويض ، ولكن بلا نجاح . وفي نهاية الامر ، اهان داي الجزائر شخصيا قنصل فرنسا ، مستخدما عبارات غير لائقة بحق ملك فرنسا ، لان هذا الاخير لم يرد على رسالة كان قد كتبها اليه الداي بصدد دين متوجب على الحكومة الفرنسية لتجار يهود ، مدينين بدورهم لحسين (٢٣) .

---

(٢٢) يفتقر هذا الكلام الى الدقة . فالقرصنة ، التي كانت قد اخذت بالافول ابتداء من القرن الثامن عشر ، عرفت انتعاشا بسيطا اثناء الحروب الثورية والنابوليونية ، ثم اختفت فيما بعد ، والمراكب الجزائرية القليلة التي بقيت تمارس القرصنة لم تجرؤ قط على التوغل في بحر الشمال ، كما يذكر انجلز . اما المراكب الايطالية التي يشير الى اسرها في عام ١٨٢٦ ، فهي في الواقع مركبان اثنان تابعان للسلطة البابوية وكانا يمارسان بدورهما القرصنة . «م»

(٢٣) هذا التصوير للاسباب التي حملت الفرنسيين على فتح الجزائر يبدو مصبوغا بلونكولونيالي صارخ. فحادثةاهانة القنصل الفرنسي لم تكن سبب الفتح =

وللحصول على اعتذار ، توجه اسطول فرنسي لضرب طوق من الحصار حول مدينة الجزائر . ودارت مفاوضات بين فرنسا ومحمد علي والباب العالي ، التزم اثناءها محمدعلي بغزو الجزائر بمساعدة فرنسا ، وبأداء جزية نظامية للسلطان الذي باسمه سيدير البلاد . لكن المفاوضات قطعت ، جزئيا بسبب معارضة انكلترا ، وجزئيا لان محمد علي ما امكنه التفاهم عينيا حول الاجراءات الواجب اتخاذها (٢٤) . وعليه ، فقد اخذت حكومة شارل العاشر على عاتقها وحدها مهمة توجيه حملة ضد الجزائر ، وفي ١٣ حزيران ١٨٣١ حط على مقربة من مدينة الجزائر ٣٨٠٠٠

= بل حجته وذريعته . فقد كان الفرنسيون يفكرون قبل ذلك بكثير بالاستيلاء على الجزائر ، وكانت خططهم هذه تدخل ضمن اطار تنافسهم مع الانكليز . وحادثة الاهانة المشهورة تاريخيا لا يمكن بحال من الاحوال ان تكون مدخلا الى تفسير مادي تاريخي لفتح الجزائر . ففتح الجزائر لم يكن « حادثة » ، بل كان تدشينا وتكريسا لسياسة الفتوحات الاستعمارية . اضف الى ذلك كله ان قنصل فرنسا دوفال كان في غاية الصلافة ، وكان هو الذي يهين عمليا داي الجزائر . وارجح الظن ان قصة الضرب بالمروحة هي من اختلاقه ، وقد نفاها الداي . «م»

(٢٤) كانت الحكومة الفرنسية تفكر منذ أمد طويل بالهيمنة على الامبراطورية العثمانية ، اما من الداخل باسم حماية الاقليات الدينية ، واما عن طريق تأييد نزعات التحرر لدى محمد علي . وقد عرضت على هذا الاخير فعلا ان يفتح الجزائر ، لكنه بعد شيء من التردد رفض . فقد كان يخطط ليجعل من مصر قاعدة لتطور مستقل وحتى للهجوم على الامبراطورية العثمانية . ومن ثم ، ما كان من الممكن ان يقبل بأن يقود حملة تهدف الى وضع الجزائر من جديد تحت حكم السلطان العثماني . «م»

من المشاة و ٤٠٠٠ من الفرسان تحت امرة الجنرال بورمون . وقد وجه حسين بك جيشا من ٦٠٠٠٠ رجل للتصدي لهم ، لكن ما امكنه ، بعد ان ترك العدو ينزل الى الشاطىء ، ان يبدي مقاومة ناجعة ، واستسلمت مدينة الجزائر في ٤ تموز بشرط احترام املاك السكان وديانتهم ، وبشرط تمكين الداي ورجاله (الاتراك) من الانسحاب بحرية . واستولى الفرنسيون على المدينة . وكانت الغنيمة تتألف بوجه خاص من ١٢ سفينة حربية ، و ١٥٠٠ قذيفة مدفع من البرونز ، وحوالي ١٠ ملايين دولار بالعملة المعدنية . واقام الفرنسيون للحال حامية في المدينة ، ونظموا ادارة عسكرية. وكانت حكومة شارل العاشر تزمع ان تعيد مدينة الجزائر الى السلطان ، وقد بعثت بالفعل بتعليمات بصدد ذلك الى استانبول، غير ان احداث تموز ١٨٣٠ خلعت شارل العاشر عن عرشه . وكان من اول الاجراءات التي اتخذها خلفه ان قرر عدم التخلي عن الفتح وارسل الى مدينة الجزائر ، بدل بورمون ، الجنرال كلوزيل (٢٥) .

منذ ذلك الاحتلال الاول للجزائر من قبل الفرنسيين وحتى الآن ، كانت هذه البلاد التعيسة مسرحا لعمليات متواصلة من سفك دماء ونهب وعنف . فكل مدينة ، كبيرة اكانت ام صغيرة ، جرى احتلالها بيتا بيتا مقابل تضحيات هائلة . فالقبائل العربية والقبائلية التي تقدر الاستقلال باغلى الاثمان والتي تقدم كراهية السيطرة الاجنبية على حياتها بالذات قد اخضعت او فت في عضدها عن طريق غزوات رهيبة احرقت فيها مساكنها واملاكها ونهبت ، واتلفت مزروعاتها ، بينما اولئك البائسون من سكانها

---

(٢٥) هنا نهاية المقاطع الاربعة المحذوفة من «نصوص حول الاستعمار» . «م»

الذين لزموا اماكنهم لاقوا مصرعهم او تعرضوا لشتى اهـــوال الوحشية او الفجور . ولقد ثابر الفرنسيون على اللجوء الى هذا الاسلوب الحربي الهمجي الذي يضرب عرض الحائط بما توصي به الانسانية والحضارة والديانة المسيحيـــة . وتبريرا لاعمالهم يزعمون ان القبائليين قساة وميالون الى القتل ، وانهم يعذبـون اسراهم ، وان التسامح حيال المتوحشين ليس جائزا ، ولكن من حقنا ان نعترض على سياسة حكومة متمدينة تلجأ الى شريعـة الثأر (٢٦) . واذا حكمنا على الشجرة من ثمارها ، فان كل مـــا نستطيع ان نقوله عن الجزائر ، بعد انفـــاق زهاء ١٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار والتضحية بالآلاف من البشر (٢٧) ، هو انها حولـــت الى مدرسة حربية لتخريج الجنرالات والجنود الفرنسيين : ففيهـــا بالفعل اكتسب جميع الضباط الذين نالوا أكاليل الغار في حرب القرم تأهيلهم العسكري وتجربتهم القتالية. وبالاستناد الى المقارنة بين عدد الاوروبيين واهالي البلاد الاصليين ، نستطيع في الساعـة الراهنة ان نجزم بان محاولات الاستيطان قد منيت بفشل شبه تام ، وهذا في بلد من اخصب بلاد العالم ، على بعد عشرين ساعة من الشواطىء الفرنسية ، وحيث العنصر الوحيد المفتقد هو أمان الاشخاص والاملاك ، المهددين من قبل عسكريين اصدقاء واعداء متوحشين (٢٧ أ) . أما البت في مسألة ما اذا كان من الواجب ان نعزو

---

(٢٦) باللاتينية في النص : Lex Talionis «م»

(٢٧) تقرر الدراسات الفرنسية الحديثة ان فتح الجزائر بين ١٨٣٠ و ١٨٧٠ كلف حياة ١٠٠٠٠٠ — ٢٠٠٠٠٠ جندي فرنسي ، ولا شك ان الخسائر الجزائرية كانت افدح . «م»

(٢٧ أ) اذا تركنا جانبا وصف الجزائريين بانهم « اعداء متوحشون » ، فان الحديث عن سوء سلوك العسكريين الفرنسيين هو مجرد صدى لما كانت تنشره =

هذا الفشل الى سمة اساسية في المزاج القومي للفرنسيين تجعلهم غير أهل للهجرة ، أم الى تقصير الادارة المحلية ، فذلك يتجاوز كفاءتنا . ان جميع المدن الهامة : قسطنطينة وعنابة وبجاية وأرزو ومستغانم وتلمسان ، قد احتلت عنوة ، مع ما يستتبع ذلك من أهوال . فالسكان الاصليون ما كانوا يخضعون الا كارهين لسادتهم الاتراك ، وقد كان في وسع هؤلاء الاخيرين ان يتذرعوا على الاقل بأنهم يشاركونهم في الدين ، لكن السكان لم يجدوا أية ميزة في الحضارة المزعومة للنظام الجديد الذي فرض عليهم فرضا ، والذي اضمروا له ، فضلا عن ذلك ، بحكم تعصبهم الديني نفورا ومقتا . وكلما تغير الحاكم ، كان القادم الجديد يجدد تدابير سلفه الصارمة، وكانت البيانات تعرب عن اطيب النيات ، لكن جيش الاحتلال وتحركات القوات المسلحة والاعمال الوحشية الرهيبة التي يقترفها الطرفان ، ذلك كله كان يكذب المزاعم الطيبة والتصريحات المسالمة.

في عام ١٨٣١ عين البارون بيشون معتمدا مدنيا ، فحاول ان ينظم جهازا للادارة المدنية يعمل بالتفاهم مع الحكومة العسكرية . لكن الاجراءات التي اقترحها كانت ستخضع الحاكم العسكري العام لشيء من الرقابة ، مما اثار حفيظة سافاري ، دوق روفيغو، وزير الشرطة السابق في حكومة نابليون ، فاستحصل على امر بعزل بيشون من منصبه . وتحت حكم سافاري ، صارت الجزائر منفى لجميع اولئك الذين عرضهم سوء سلوكهم السياسي او الاجتماعي في فرنسا لطائلة القانون . وفي الوقت نفسه جلبت الى

= الصحافةالكولونيالية، فالمعمرون ماكانوا يطالبون بتوسيع السلطة المدنية، وما كانوا يحملون العسكريين تبعة الاخطاء ، الا بهدف توسيع رقعة استيطانهم وحرية تحكمهم بالبلاد وبسكانها . «م»

الجزائر فرقة اجنبية تلقى رجالها امرا يحظر دخولهم الى مدن البلاد . وفي عام ١٨٣٣ رفعت الى مجلس النواب عريضة تقول :

« لقد عانينا ، طوال ثلاثة اعوام ، من جميع المظالم الممكنة . ولم يكن للشكاوى الموجهة الى السلطات سوى جواب واحد: فظائع جديدة موجهة بصورة مخصوصة ضد اولئك الذين رفعوا الشكاوى . وبسبب ذلك ، لا يجرؤ احد على تحريك ساكن ، وهذا هو السبب في ان هذه العريضة لا تحمل توقيعا . اواه ، ايها السادة ، اننا نتوسل اليكم باسم الانسانية ان تخلصونا من هذا الطغيان الماحق ، وان تعتقونا من اغلال العبودية . واذا بقيت البلاد في ظل الاحكام العرفية، واذا لم تقم سلطة مدنية ، فهلاكنا لا مناص منه ، ولن تعرف الجزائر سلاما » .

كان من عاقبة هذه العريضة تعيين لجنة تحقيق تكللتاعمالها باقامة ادارة مدنية (٢٨) . وبعد وفاة سافاري ، وفي عهد الجنرال

---

(٢٨) تولى سافاري القيادة العسكرية من كانون الاول ١٨٣١ الى نيسان ١٨٣٣ ، في ظل منافسة متواصلة مع المعتمد بيشون الذي تولى الادارة المدنية . وقد تميز عهد سافاي بأعمال عسفية وفظائع لم يتوصل الى مجاراته فيها كلوزيل في عهد قيادته الثانية (١٨٣٥ – ١٨٣٧) : احكام سريعة بالاعدام ، ابادة قبائل بكاملها ، تحويل المساجد الى كاتدرائيات . وقد بعث البرلمانالفرنسي بلجنة تحقيق جمعت في ايلول وتشرين الثاني ١٨٣٣ شكاوى وعرائض ، من اشباه تلك التي يوردها انجلز ، صادرة عن المدنيين الاوروبيين . ولدى =

فوارول VOIROL الذي تولى منصبه بالوكالة ، جرى اتخاذ بعض التدابير بغية تهدئة خواطر السكان الهائجـة : تجفيـف بعض المستنقعات ، وتحسين الطرق ، وتنظيم ميليشيا مؤلفة من اهـل البلاد الاصليين . بيد ان تنفيذ هذه الاجراءات توقف بعد عودة الماريشال كلوزيل الذي نظم حملة اولى وغير موفقة بالمـرة ضـد قسطنطينة وقد حامت حول حكمه شبهات كثيرة حتى انه ارسلت الى باريس في عام ١٨٣٦ عريضة تحمل تواقيع ٥٤ شخصية مـن شاغلي المناصب الهامة في الاقاليم ، وتطالب بتحقيق في المساوىء المرتكبة في ظل حكم كلوزيل . وادت هذه القضية في خاتمة المطاف الى رحيل الحاكم . ولقد تميز عهد لوي ـ فيليب بكامله بمحاولات استيطان لم تتمخض الا عن مضاربات عقارية ، وبمحاولات احتلال من قبل الجيش اتضح عدم جدواها ، لان المعمرين كانوا يتعرضون للخطر حالما يبتعدون عن مرمى بنادق تحصيناتهم ، كما تميز اخيرا بمجهودات للاستيطان في القسم الشرقي من الجزائر ولطرد عبد القادر من وهران والمنطقة الغربية . وكان من نتائج هزيمة هـذا الزعيم الجسور والمشاكس ان اعلنت قبيلة حميان الغرب الكبيرة خضوعها الفوري (٢٩).

في اثناء ثورة ١٨٤٨ عين الجنرال كافينياك حاكما عاما خلفا

= رجوع هذه اللجنة الاولى التي جاءت تقاريرها دامغة ، سمت حكومـة لوي ـ فيليب لجنة عليا سميت بلجنة افريقيا لاعداد نظام اساسي للجزائر، تم اقراره للمرة الاولى في مرسوم صادر في ٢٢ تموز ١٨٣٤ . وقد خلـط انجلز بين اللجنتين . «م»

(٢٩) كانت هذه القبيلة قد ساعدت بالفعل عبد القادر عسكريا ، ولكن لم يكن لها الاهمية التي يخصها بها انجلز . «م»

لدوق اومال الذي كان قد استقال مع امير آخر موجود آنذاك في الجزائر ، امير جوانفيل (٣٠) . لكن ظهر للعيان ان **الجمهورية** لم تكن اكثر توفيقا من الملكية في ادارة تلك المنطقة . ففي ابان حياة ذلك العهد القصيرة تعاقب عدة حكام . وقد ارسل معمرون الى الجزائر لزراعة الارض ، لكنهم آبوا الى الدولة المتروبولية الام أو نفضوا ايديهم من الامر قانطين . وفي عام ١٨٤٩ قاد الجنرال بيليسييه حملة ضد عدد من القبائل وضد قرى بني سلّم . وكما جرت العادة ، اتلفت محاصيلهم واحرقت جميع ممتلكاتهم التي أمكن وضع اليد عليها ، بحجة انهم يرفضون دفع الضرائب . وحينما انتشرت في الزاب ــ وهي منطقة خصبة عند تخوم الصحراء ــ قلاقل خطيرة بحض من احد المرابطين ، وجهت الى المنطقة حملة عسكرية من ١٢٠٠ رجل ، فمنيت بالهزيمة على ايدي السكان الثائرين . وتبين عندئذ ان العصيان واسع النطاق ، تحض عليه رابطة سرية تعرف باسم « سيدي عبد الرحمن » (٣١) ، وهدفها الرئيسي طرد الفرنسيين خارج البلاد . وما امكنت هزيمة العصاة الا بتوجيه حملة حقيقية ضدهم بامرة الجنرالين كانروبير وهربيون . وجاء حصار مدينة زاعطشه العربية بالدليل على ان الاهالي لم يفقدوا شيئا من شجاعتهم ، وعلى انه لم تعمر افئدتهم بأية مودة تجاه الغزاة . فقد قاومت المدينة هجمات محاصريها ٥١ يوما ، وما امكن الاستيلاء عليها في آخر الامر الا عنوة . اما منطقة القبائل الصغرى فلم تخضع الا عام ١٨٥١ ، حين فتحها الجنرال

---

(٣٠) كان هذان الاميران من آل أورليانس الذين كان آخر ملوكهم لوي ـ فيليب. «م»

(٣١) نجم عصيان واحة زاعطشة نتيجة لزيادة مفاجئة في الضرائب على اشجار النخيل، وقاده مرابط يعرف باسم بوزيان ، وجمعية «سيدي عبدالرحمن» هي أخوية الرحمانية الكبيرة الواسعة الانتشار في شرقي الجزائر . «م»

سانت ـ آرنو ، مقيما بذلـــك خط مواصلات يربط فيليبفـــيل بقسطنطينة (٣٢) .

ان النشرات الصحفية والجرائد الفرنسية تغزر بالتصريحات التي تتغنى بالسلام والرخاء في الجزائر : ولكن ذلك لا يعدو ان يكون مداهنة للغرور القومي . فالى الساعة الراهنة ما يزال داخل البلاد غير مستعمَر ، مثله بالامس . والسيادة الفرنسية وهمية صرف ، باستثناء الشريط الساحلي وضواحي المدن . وتواصـــل القبائل توكيد استقلالها والاعراب عن حقدها على النظام الفرنسي: وعليه ما يزال اسلوب الغارات الانتقامية ساري المفعول . ففي عام ١٨٥٧ قام الماريشال راندون بغارة كللت بالنجـــاح على قرى القبائليين التي لم يتم اخضاعها حتى ذلك الحين بغية ضم اراضيهم الى الممتلكات الفرنسية . وما يزال الاهالي يحكمون بقبضةحديدية، وتشهد العصيانات المتواترة على ان نظام الاحتلال الفرنسي يفتقر كل الافتقار الى الاستقرار ، وتبرهن على هشاشة السلام الذي يقتضي الحفاظ عليه اللجوء الى اشباه تلك الاساليب . وبالفعل ، ان المحاكمة التي جرت في آب ١٨٥٧ في وهران وجرم فيها النقيب دوانو ، رئيس المكاتب العربية (٣٣) ، لاقدامه على قتل احد الاعيان الاثرياء من الاهالي ، كشفت النقاب عن القسوة والجور اللذيـــن

---

(٣٢) اما منطقة القبائل الكبرى التي واجهت سلسلة من الهجمات الجائحة فلم تخضع بالمقابل الا عام ١٨٥٧ . «م»

(٣٣) المكاتب العربية : مصلحة في الجيش الفرنسي كانت تتولى ادارة السـكان في القسم الاكبر من الاراضي الجزائرية الخاضع للحكم العسكري . وقـــد استغل المعمرون الواسعو النفوذ في « المنطقة المدنية » اي في الشريـــط الساحلي والمدن الكبرى ، قضية دوانو للتنديد بالسلطة العسكرية . وقـــد حكمت محكمة وهران على دوانو بالاعدام ، ثم صدر عفو عنه . «م»

يمارس بهما الموظفون الفرنسيون ، حتى ذوو الرتب الصغيرة منهم، مهامهم ، ولا غرو ان تكون تلك القضية قد لفتت انتباه العالم كله الى هذه النقطة .

ان (٣٤) المستعمرة مقسمة في الوقت الراهن الى ثلاثة اقاليم: قسطنطينة في الشرق ، الجزائر في الوسط ، ووهران في الغرب . والبلاد موضوعة تحت سلطة حاكم هو في الوقت نفسه قائد اعلى للجيش . والى جانبه سكرتير ، ومعتمد مدني ، ومجلس مؤلف من مدير الشؤون المدنية والقائد الاعلى للبحرية والمعتمد العسكري والمدعي العام ومهمته اضفاء صفة القانون على بلاغات الحاكم . وفي حال خرق القانون ، ترفع الدعوى الى مجلس القضايا المتنازع عليها ، ومقره في مدينة الجزائر. والاقاليم التي اقيمت فيها ادارة مدنية لها عمد وقضاة ومفوضو شرطة . وما يزال للقبائل الاهلية التي تعتنق الدين الاسلامي قضاتها الشرعيون ، بيد انه يجري العمل بنظام للتحكيم يفضلونه ، على ما يقال ، على سواه وقد تم تكليف موظف خاص (محامي العرب) بالدفاع عن المصالح العربية لدى المحاكم الفرنسية .

يقال انالتجارة شهدت تطورا مرموقا منذ الاحتلالالفرنسي. وتقدر الواردات بحوالي ٢٢ مليون دولار ، وتتألف هذه الواردات بوجه الخصوص من القطن والاصواف والحرائر والحبوبوالطحين والكلس والسكر المكرر . اما الصادرات فتتألف من المرجان الخام والجلود والقمح والحشيش والزيت والصوف وبعض المنتجات الاستهلاكية الاخرى الاقل أهمية .

---

(٣٤) هذه الفقرة والفقرة التالية الاخيرة محذوفتان من طبعة موسكو . «م»

بيجو (١)

كارل ماركس

بيجو دي لابيكونري ، توماس ـ روبير ، دوق دي اسلي ،

---

(١) في الوقت الذي كلفت فيه « الموسوعة الاميركية الجديدة » انجلز بكتابة مقال « الجزائر » ، كلفت ماركس بكتابة مقال عن الجنرال بيجو ، فاتح الجزائر . وكانت هذه هي المرة الاولى التي يكتب فيها ماركس بصورة مباشرة عن الجزائر . وقد كتب ماركس مقاله في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٥٧ ، واعتمد ، في ما اعتمد ، على المواد التي بعث بها اليه انجلز . وبالفعل ، كان ماركس قد طلب ، في رسالة منه الى انجلز في ١٧ ايلول ١٨٥٧ ، ان يزوده بمعلومات توثيقية عن عدة جنرالات ، بمن فيهم بيجو . وقد اجابه انجلز في ٢٢ ايلول ، وهاكم ترجمة المقطع المتعلق ببيجو من رسالته :

« بيجو . الشيء الاساسي عنه اشرت اليه في مقال الجزائر . كانجنرالا=

ماريشال فرنسا ، ولد في ليموج في تشرين الاول ١٧٨٤ ، وتوفي في باريس في ١٠ حزيران ١٨٤٩ . دخل الى الجيش الفرنسي في عام ١٨٠٤ بصفة جندي بسيط ، ورفع الى رتبة عريف في حملة ١٨٠٥، وخدم كضابط صف اثناء الحملة ضد بروسيا وبولونيا (١٨٠٦ —

= دون المتوسط ، لا تعني انتصاراته في الجزائر ومراكش امرا كبيرا . فلئن فتح الجزائر بجيش قوامه ١٠٠٠٠٠ رجل ، ولئن كيف اساوب الحرب مع البلاد ومع العدو ، ولئن حطم ، او بالاولى سحق قدرة العرب (لا القبائليين) على المقاومة ، فانني لا اقيم لهذا كله كبير حساب ، لانني لا اعتقد انه هو الذي رسم الخطط . لقد كان مرمقا (المرمق : من يعمل عملا دون ان يحسنه . «م») في عمله بعض الشيء ، ولقد اثبت في تفنة لا انه قابل للارتشاء فحسب ، بل كذلك انه يفتقر الى قوة التصميم والحزم . لقد كان في مقدوره ، وهو الذي كان في امرته ١٠٠٠٠٠ رجل وضباط من امثال لاموريسيير وشانغارنييه وكافينياك ونيغريه ودوفيفييه الذين استكملوا تأهيلهم ومراسهم خلال عشر سنوات من الحرب ، ان يفعل شيئا يذكر دونما حاجة الى موهبة كبيرة ، ولا سيما ان هيئة الاركان الفرنسية جيدة جدا . ومجمل القول ، اقتصر نشاطه كله في غالب الاحيان على تنظيم قوات احتياطية (ولست ادري الى اي حد كان يمكن لهيئة الاركان ان تقوم بهذه المهمة عنه) وعلى قيادتها ، اذ كانت فرقة واحدة او لواء واحد لا اكثر يعمل في كل قطاع » .

وقد رجع ماركس ، حتى يكتب مقاله عن بيجو ، الى عدة مؤلفات ، وهوامشه على عدد منها ما يزال محفوظا ، ونخص بالذكر منها : د. واغنر : « اللون المثلث في الاطلس ، او الجزائر والفتح الفرنسي » ، لندن ، ادنبره، نيويورك ١٨٥٤ ، وكذلك دانييل ستيرن : « تاريخ ثورة ١٨٤٨ » المجلد ١ ، باريس ١٨٥٠ . «م»

١٨٠٧) ، وشارك في عام ١٨١١ ، برتبة مقدم ، في حصـــار كل من ليريدا وطورطوسا وتراغونا ، ورقي الى رتبة عقيد غداة معركة اوردال في كاتالونيا . وبعد عودة آل بوربون تغنى بزهرة الزنبق(٢) في اشعار رديئة ومسفة ، ولما لم يعد عليه هذا الطفــح الشعري بمجد يذكر ، انضم من جديد ، اثناء الايام المئة (٣) ، الى حــزب نابليون الذي ارسله ليلتحق بجيش الالب على راس الكتيبة القتالية الرابعة عشرة . وحين عاد آل بوربون للمرة الثانية ، آثر الاختلاء في اكسيدوي في اراضي ابيه . واثناء حملة دوق انغوليم عـــلى اسبانيا (٤) ، عرض على آل بوربون سيفه ، لكنه ازاء صدودهم عنه اعتنق الليبرالية وانضم الى الحركة التي افضت الى ثورة ١٨٣٠.

في عام ١٨٣٩ انتخب بيجو عضواً في مجلس النواب ورقاه لوي ـ فيليب الى رتبة جنرال . وكان قد عين من قبل ، في سنة ١٨٣٣ ، قائداً لقلعة بلاي ، حيث كانت دوقة دي بيري موضوعة تحت حراسته ، فما عادت عليه طريقته في اداء مهمته بأكاليل غار يشار اليها بالبنان ، سوى انه بات يطلق عليه مذ ذاك فصاعــداً لقب « جلاد بلاي السابق » (٥) . وحين تهجم النائب لارابي في ١٦

---

(٢) زهرة الزنبق : شعار الملكية في فرنسا . «م»

(٣) الايام المئة : هي الايام المتصرمة بين ٢٠ آذار ١٨١٥ ، يوم عودة نابليون الى باريس ، و ٢٢ حزيران ، يوم تنازله عن العرش للمرة الثانية . «م»

(٤) حملة نظمت في عام ١٨٢٤ في عهد شارل العاشر ، ضمن مخطط سياسي رجعي . «م»

(٥) كانت دوقة دي بيري ، ابنة ملك الصقليتين (باليرمو) ، قد تزوجت من ابن شارل العاشر ، دوق دي بيري الذي اغتيل سنة ١٨٢٥ . وفي عـــام ١٨٣٢ حاولت تأليب مقاطعة فانديه على لوي ـ فيليب ، فاعتقلها في بلاي . وقد انتهت القصة على نحو لا يخلو من السخرية ، اذ ان دوقة دي بيري =

كانون الثاني ١٨٣٤ ، اثناء مناقشات البرلمان ، على دكتاتوريـــة سو (٦) العسكرية ، قاطعه بيجو بهذه الكلمات : « الطاعة هي واجب الجندي الاول » ، مما جعل النائب دولونغ يوجه اليه هذا السؤال اللاذع : « وما العمل حينما يصدر اليك الامر بأن تكون حارس سجن ؟ » (٧) . وقد انتهى هذا الحادث بمبارزة بين بيجو ودولونغ لقي فيها هذا الاخير مصرعه (٨) .

اثارت هذه الحوادث سخط سكان باريس ، ثم تعاظم هذا السخط نتيجة لمشاركة بيجو في قمع عصيــان ١٣ و١٤ نيسان ١٨٣٤ (٩) . وقد توزعت القوات المكلفة بقمعذلك التمردالى ثلاثة الوية ، وضع احدها تحت امرة بيجو . وفي صبيحة الرابع عشر منه، في شارع ترانسنونان ، وفيما كانت حفنة من المتحمسين ما تــزال صامدة خلف احد المتاريس ، مع ان المسألة كلها كانت قد باتت

= اخفت كونها حاملا ، وقد وضعت في بلاي قبل اطلاق سراحها واعادتها الى باليرمو . وقد تجللت سمعة بيجو بالهزء لانه عاد الى الخدمة في الجيش بقبوله مهمة الحراسة تلك . «م»

(٦) كان سو SOULT آنئذ وزيرا للحربية . «م»

(٧) كان سؤال دولونغ DULONG المضبوط هو : « وهل تعني الطاعة ان يصير الانسان جلادا ؟ » لكن العبارة المثبتة اعلاه هي ترجمة لترجمة. «م»

(٨) لم تكن هذه مبارزة بيجو الاولى . فقد قتل في مبارزة عام ١٨٠٤ ، وكان له من العمر ٢٠ سنة ، جنديا متقدما في السن . وقد تباهى بانه كان المبادر الى اطلاق النار على دولونغ لانه هو المهان . «م»

(٩) تحولت جنازة دولونغ الى مظاهرة شعبية . وفي نيسان ١٨٣٤ ، ثار عمال النسيج في مدينة ليون للمرة الثانية ، وامتدت الشرارة الى باريس حيث نصبت المتاريس بتحريض من الجمهوريين . وقد ارتكبت القوات النظامية مجزرة في شارع ترانسنونان ، وكانت بامرة لاسكور . «م»

بحكم المنتهية ، قامت القوات النظامية المتفوقة عددا بالفتك بكـل وحشية بمن هم خلف المتراس . لم يكن ذلك الشارع في قطـاع اللواء الذي بامرة بيجو ، ولم يشارك هو نفسه في تلك المجزرة ، لكن اهل باريس كانوا يضمرون له كراهية شديدة ، فقرنوا اسمه بتلك الفعلة الدنيئة ، فصار يعرف بلقب « رجل شارع ترانسنونان» رغم كل ما كان يمكنه ان يسوقه من ادلة على براءته .

. في ١٦ حزيران ١٨٣٦ ارسل الجنرال بيجو الى الجزائر حيث عهدت اليه قيادة في ولاية وهران ، وهو منصب ما كان تابعا بملء معنى الكلمة للحاكم العام (١٠) . وحين تلقى الامر بالتصـــدي لعبد القادر وباخضاعه عن طريق تحريك قوات تبـــث الذعر في النفوس ، عقد اتفاقية تفنة (١١) ، حارما نفسه على هذا النحو من فرصة القيام بعمليات عسكرية وواضعا جيشه في موقف حرج ، حتى قبل ان تدور رحى القتال . والحق ان بيجو شن عدة معارك

---

(١٠) في الحقيقة ، استغل بيجو علاقاته السياسية في باريس ، ولا سيما مـع تيير ، كي يضرب صفحا عن أوامر الحاكم العام للجزائر . «م»

(١١) بدافع انتخابي ، عجل بيجو بالمفاوضات مع عبد القادر التي كللت باتفاقية تفنة في ٣٠ ايار ١٨٣٧ . وقد اعترفت النصوص العلنية في هذه الاتفاقيـة بدولة عبد القادر بتثبيتها لحدود سيادتها وباستثنائها منها ولاية القسطنطينة والمدن والسهول المحيطة بمدينتي الجزائر ووهران . وفي وقت لاحـق ، قامت السلطات الاستعمارية بتزوير النص الفرنسي بينما اعتبر النص العربي مفقودا . وقد ألحقت بالاتفاقية نصوص سرية : فمقابـــل دفع ١٠٠٠٠٠ بوجوص (١٨٠٠٠٠ فرنك ذهبي) تعهد بيجو بتقديم مؤن ، بله بنادق ، لعبد القادر . وما كادت هذه النصوص توضع موضع تنفيذ أولي حتى ثارت فضيحة جديدة حول العمولات . وقد رفعت القضية الى القضاء ، حيـث ثبت تورط بيجو . «م»

قبل توقيع الاتفاقية . ومن ذلك ان بندا سريا غير متضمن في نص الاتفاقية ينص على دفع ٣٠٠٠٠ بوجوصي (حوالي ١٢٠٠ دولار) للجنرال بيجو . وعلى اثر استدعائه الى فرنسا عين جنرال فرقة ومنح لقب ضابط كبير في فرقة الشرف . وحين بدأ يثور اللغط حول البند السري في اتفاقية تفنة ، اذن لوي - فيليب لبيجو بانفاق مال لبناء طرق في منطقته حتى تكبر شعبيته بين ناخبيه وحتى يصبح مقعده في مجلس النواب مضمونا .

في مطلع ١٨٤١ ، عين حاكما عاما للجزائر ، فأدخل على السياسة الفرنسية في الجزائر تغيرا جوهريا . فقد كان اول حاكم وضع تحت امرته جيش بمستوى مهامه ، واول حاكم يتمتع بسلطة مطلقة بين الجنرالات من مرؤوسيه ويشغل منصبه فترة كافية من الزمن ليضع خطة يستغرق تنفيذها سنوات عدة . ولئن فاز بقصب السبق في معركة اسلي (١٤ آب ١٨٤٤) التي هزم فيها جيش امبراطور مراكش بقوات تقل تعدادا لانه هاجم المسلمين مباغتة بدون ان يعلن الحرب ، وفي وقت كانت فيه المفاوضات الدائرة على وشك ان تثمر (١٢) . وفي ١٧ تموز ١٨٤٣

---

(١٢) كان عبد القادر قد انسحب الى مراكش ، فراحت فرنسا تضغط على سلطانها كي يبعد الامير وقواته الى الحدود الجزائرية . وقد لعبت انكلترا دور الوسيط . وقد اوشكت تلك المفاوضات ، كما يقول ماركس ، ان تثمر ، لكنها انقطعت بسبب هجوم بيجو ، وكذلك بسبب قصف مدينة طنجة (٦ آب ١٨٤٤) من قبل امير جوانفيل ، ابن الملك . وحتى لا يبقى بيجو « متخلفا » ، ضرب عرض الحائط بأمر حكومته بعدم اختراق الحدود، واجتاز وادي اسلي في صبيحة ١٣ آب على رأس ١١٥٠٠ جندي ليباغت ويضرب جيشا مراكشيا تعداده ٢٥٠٠٠ رجل . وقد تولى بيجو بنفسه تضخيم هذا النصر العسكري ، قبل ان يحيطه الادب الكولونيالي ، بهالة الاسطورة . «م»

رقي بيجو الى رتبة ماريشال فرنسا ، وسمي دوق دي اسلي . ولما حشد عبد القادر جيشا جديدا بعد رجوع بيجو الى فرنسا ، اعيد هذا الاخير الى الجزائر من جديد حيث سحق بسرعة التمرد العربي (١٣) . وقامت بينه وبين غيزو خلافات على اثر الحملة التي شرع بها في منطقة القبائل متجاوزا تعليمـــات الوزارة ، وجرى استبداله بدوق اومال ، وطبقا لقولة غيزو : « سمح له بالعودة الى فرنسا كي يتمتع فيها بمجده » (١٤) .

---

(١٣) بعد قمع تمرد بومزة في منطقة وهران الجبلية في سنة ١٨٤٥ ، عاد بيجـو الى فرنسا ليعتني بأراضيه . فاستأنف عبد القادر الحرب وسجل نجاحـا باهرا في سيدي ابراهيم (ايلول ١٨٤٥) . فاستدعي بيجو « كمنقـذ » ، واستنفر جيشا يزيد تعداده على ١٠٠٠٠٠ رجل ، ودحر عبد القادر الى الجنوب الجزائري ، ثم الى مراكش (تموز ١٨٤٦) . والحق ان سحـق « التمرد العربي » لم يكن بمثل السهولة التي يوحي بها ماركس . «م»

(١٤) اراد بيجو ان يطارد عبد القادر الى مراكش متذرعا بـ « حق الملاحقة » الذي صار فيما بعد مبدأ يعول عليه في الممارسات العسكرية الاستعمارية والعنصرية . ولكن حكومة غيزو لم توافق . فارتد بيجو الى المنطقـة القبائلية في حملة لم يكن الهدف منها سوى ان تلهج الالسن بذكره وان تروي غلة جنوده الذين اطلقت لهم حرية النهب والقتل . وقد تحـدى هنا ايضا اوامرباريس التي ارادتان تقتصر العمليات ذات الطابع الردعي على منطقة الساحل . ولم تتسم حملة بيجو بنهب قرى بني عباس فحسب ، بل انقض الجنود في طريق عودتهم على مدينة بجاية ، اي على مستوطنـة فرنسية ، وعاثوا فيها فسادا ، وارتكبوا أعمال اغتصاب . وبعـد هـذه الحادثة ما عاد في مستطاع بيجو ان يعتمد على تأييد اوروبيي الجزائر ، ولا سيما ان مشاريعه المتعلقة بالاستيطان العسكري كانت تتناقض مع رغبة المعمرين المدنيين في الاستئثار بكل شيء . ولما اثيرت في البرلمان الفرنسي في=

في ليلة ٢٣ـ٢٤ (١٥) ايار ١٨٤٨ ، وبناء على نصيحة غيزو ، استدعاه لوي ـ فيليب وعهد اليه بقيادة مجمل القوات المسلحة ، الجبهة والحرس القومي . وفي صبيحة ٢٣ توجه ، برفقة الجنرالات رولتيير وبيدو ولاموريسيير ودي سال وسانت ـ آرنو وغيرهم ، الى مقر هيئة الاركان، في قصر التويلري، كيما يتقلد من دوق دي نيمور امرة القيادة العليا . وقد ذكر الضباط الحاضرين بأنه يتهيأ لقيادتهم للقتال ضد الثوار الباريسيين ، وبأنه « لم يهزم قط سابقا ، لا في ساحة الوغى ، ولا اثناء عصيان ما » ، ووعد ، هذه المرة ايضا ، بأن يصفي بسرعة حساب «الغوغاء العصاة »(١٦). بيد ان نبأ تعيينه اسهم بقدر لا يستهان به في حدوث انعطاف حاسم في مجرى الاحداث . فقد ثارت ثائرة الحرس القومي بسبب تعيين بيجو في منصب القائد الاعلى . وتعالت من صفوفه صيحات : « ليسقط بيجو ! » ، « ليسقط رجل شارع ترانسنونان ! » ، واعلن افراده بجلاء انهم لن يطيعوا اوامر ذلك الجنرال . واذعرت هذه التظاهرة لوي ـ فيليب ، فألغى الامر الصادر ، ومضى يوم ٢٣ في مفاوضات لا طائل فيها . وفي ٢٤ شباط كان بيجو ، من بين سائر مستشاري الملك ، هو الوحيد الذي دعا الى استخدام القوة الى النهاية . لكن لوي ـ فيليب كان قد بات ميالا الى التضحية

= باريس مسألة سلوك جنود الحملة ، سنحت الفرصة لغيزو ليتخلص من بيجو الذي اضطر الى الاستقالة . وقد غادر الجزائر في ٥ حزيران ١٨٤٧«م»

(١٥) سهو من ماركس . والصحيح ٢٢ ـ ٢٣ . «م»

(١٦) في عام ١٨٤٨ كانت الاشتراكية بالفعل شبحا يقض مضجع ذلك الضابط الفظ الملقب بفاتح الجزائر . وكان يشبه الاشتراكيين بالبرابرة ، ويصفهم مع العمال بانهم « حيوانات غبية » و « وحوش كاسرة » ينبغي ان يعاملوا في فرنسا كما العرب في الجزائر : اي بالسحق . «م»

بالماريشال وصولا الى التفاهم مع الحرس القومي فنقل القيادة الى ايد اخرى ، واستغنى عن خدمات بيجو . وبعد يومين وضع هذا الاخير سيفه ــ دونما نجاح ــ تحت تصرف الحكومة المؤقتة .

حين اضحى لوي ــ نابليون رئيسا،(١٧) عهد الى بيجو ــ الذي كان قد انتخب عضوا في الجمعية الوطنية عن دائرة شارانت الدنيا ــ بقيادة جيش الألب . وقد نشر بيجو مؤلفات شتى ، وبخاصة عن الجزائر (١٨) . وفي آب ١٨٥٢ رفع له نصبان ، الاول في الجزائر (١٩) ، والثاني في المدينة التي رأى فيها النور (٢٠) .

---

(١٧) اضحى لوي ــ نابليون بونابرت رئيسا للجمهورية في ١٠ كانون الاول ١٨٤٨ . «م»

(١٨) رغم كراهية بيجو للكتاب ، فقد حبر الكثير من الصفحات ليعرض تصوراته الاستعمارية واساليبه العسكرية . وقد كتب بوجه خاص عن « خطر » الاشتراكية وعن حرب الشوارع . «م»

(١٩) رفع تمثال بيجو في قلب مدينة الجزائر ، ونقش على قاعدته الشعار الكولونيالي المشهور Ense et Aratro ، أي بالسيف والمحراث ، اشارة الى دور كل من الجيش والمعمرين في الحرب وفي السلم . وقد احل الآن محل تمثال بيجو نصب يخلد الامير عبد القادر . «م»

(٢٠) رفع هذان التمثالان بعد وفاة بيجو التي كانت كما ذكر ماركس في مطلع المقال ، في ١٠ حزيران ١٨٤٩ . «م» .

الجزائر : مدرسة عسكرية [١]

فريدريك انجلز

بعد فتح مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وجد الفرنسيـــون انفسهم في مواجهة عدو مسلح ببندقية الفتيلة الطويلة الدارجـة الاستعمال لدى غالبية الشعوب الشرقية. وكانت بنادق الفرنسيين

---

(١) في سنة ١٨٦٠ ، وفي ٢١ ايلول و ٥ تشرين الاول و٢٠ تشرين الثاني على التوالي ، نشرت المجلة الانكليزية Volunteer Journal for Lancashire and Cheshire ثلاثة مقالات لانجلز عن دور حرب فتح الجزائر في تجديد تركيب الجيش الفرنسي وتسليحه . ونقدم هنا ترجمة لما يتعلق من تلك النصوص بالجزائر . «م»

ذات السبطانة الصقيلة دونها مدى . وكانت الطوابير الفرنسيةتجد نفسها محاطة من كل جانب بخيالة من البدو كلما اجتازت سهلا ، وبقناصة قبائليين كلما اجتازت جبلا . وكان رصاص العدو يصيب الطوابير ، بينما يبقى مطلقوه بعيدا عن مرمى نار الفرنسيين . وفي السهول ، ما كان يسع العساكر ان يبتعدوا كثيرا عن الطابور ، خشية ان يفاجئهم ويوردهم حتفهم الفرسان العرب السراع .

ما كاد هذا النقص يلحظ حتى اتخذت تدابير لتداركه . فقد انتهز دوق دورليان ، ابن لوي ـ فيليب ، فرصة سفره في شهر العسل الى المانيا عام ١٨٣٧ كي يدرس تنظيم فوجي طرادة في الحرس البروسي . وقد فهم للحال ان ذلك النظام يمثل نقطـــة انطلاق يمكن بدءا منها النجاح في تشكيل نوع الوحدة الذي تمس اليه الحاجة في الجزائر . وعكف على الاثر على المسألة . وعانى ما عاناه من الرأي المسبق القديم الشائع لدى الفرنسيين ضد البندقية ذات السبطانة المحززة . ولحسن الحظ ، اخرجـه من المـأزق اختراع اثنين من مواطنيه ، دلفينيي وبونشارا . فقد ابتكرا بندقية تعبأ بمثل السرعة والسهولة اللتين تعبأ بهما تقريبا بندقية الفتيلة ذات السبطانة الصقيلة مع تفوقها عليها في المدى ودقة التصويب. وفي ١٨٣٨ اذن للدوق بتنظيم فوج حسب خططه ، وفي العام ذاته تم تشكيل كتيبة بكاملها وفق ذلك النموذج . وفي ١٨٤٠ ارسلت الى الجزائر للتحقق مما تقدر على اعطائـــه في حرب حقيقية ، فاجتازت ذلك الامتحان بنجاح كبير ، فجرى في العام ذاته تشكيل تسعة افواج جديدة اخرى من الطرادة . واخيرا في عام ١٨٥٣ شكلت عشرة افواج اخرى ، مما رفع في الوقت الحاضر عدد افواج طرادة الجيش الفرنسي الى عشرين فوجا .

ان الصفات العسكرية الخاصـــة التي يتمتع بها البـدو والقبائليون والتي اتخذت بلاادنى ريب مثالا يحتذى للخيالةالخفيفة

وللقناصة قد حثت منذ وقت مبكر جدا الفرنسيين على محاولة ضم السكان الاصليين الى جيشهم وعلى فتح الجزائر عن طريق حمل العرب على قتال العرب . وهذه الفكرة على وجه التحديد هي التي كانت وراء تشكيل فيلق الزواوي (٢) . فمنذ عام ١٨٣٠ تكون جل هذا الفيلق من السكان الاصليين ، وقد بقي فيلقا عربيا في الجوهر حتى عام ١٨٣٩ ، يوم هجر رجاله صفوفه بصورة جماعية ليلتحقوا بمعسكر عبد القادر الذي كان قد شهر لتوه راية الحرب المقدسة (١٣) . ويومئذ لم يبق في كل سرية سوى القادة والجنود الفرنسيين الاثني عشر ، وهذا باستثناء سريتين فرنسيتين خالصتين كانتا ملحقتين بكل فوج وقد توجب ملء الفراغ عن طريق استدعاء الفرنسيين ، ومنذ ذلك الحين صار الزواويون فيلقا فرنسيا خالصا لا يتميز عن غيره الا باقامته الدائمة في افريقيا . غير ان النواة القديمة من الزواويين ذوي الاصل الفرنسي تشربت طابع اهـل البلاد الاصليين الى درجة امسى معها ذلك الفيلق ، في مجمله ، تشكيلا جزائريا محضا له ذهنيته وعاداته الخاصة ، وله سماته القومية التي تميزه أتم التمييز عن سائر الجيش الفرنسي (٤) .

---

(٢) ZOUAVES اطلق في البداية على فرق المشاة الفرنسية المؤلفة من جنود جزائريين ، ثم صار يطلق على كل فرقة مؤلفة من سكان البـلاد الاصليين ممن يرتدون ملابس شرقية مزركشة . «م»

(٣) الحرب المقدسة هي الجهاد في العربية . وتعبير « الحرب المقدسة » هو تعبير مرذول في الغرب لانه يشير الى حروب العصبية الدينية . وتصـوير « جهاد » الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي بانه « حرب مقدسة » هـو ضرب من التزييف ومن التأليب والتنفير والادانة . «م»

(٤) ينساق انجلز هنا وراء اغراء استعمال نفس المصطلحات التي كانت تستخدمها عصرئذ الصحافة الفرنسية والكولونيالية : فهو يتحدث عن تشكيـل =

ويجند اكثر الزواويين من بين الجنود البدلاء(٥): وعليه فان معظمهم من الجنود المحترفين . وهم في الاساس جزء من المشاة الخفيفة ، ومجهزون بالتالي منذ زمن بعيد ببنادق الفتيلة. وهناك في الوقت الراهن ثلاث كتائب ، اي تسعة افواج ، في افريقيا ، وكتيبة واحدة (فوجان) من زواويي الحرس .

منذ ١٨٤١ بذلت محاولات جديدة بغية تجنيد جنود من السكان الاصليين في القوات المحلية . وقد تم تشكيل ثلاثة افواج، لكنها بقيت ناقصة وضعيفة حتى عام ١٨٥٢ ، يوم تضاعفت جهود تجنيد السكان الاصليين الذين ذاعت شهرتهم اثناء حرب ايطاليا او حرب القرم (٦) .

= « جزائري » له « سماته القومية » المميزة ، مع ان التشكيل المشار اليه هو محض تشكيل فرنسي « محلي » قد يكون تأثر ب « طابع اهل البلاد الاصليين » ، لكنه يبقى في الجوهر تشكيلاً كولونياليا وجزءا لا يتجزأ من جيش الغزو الفرنسي . وقد لجأ المستوطنون الاوروبيون الى الحيلة اللغوية نفسها : فقد اطلقوا على انفسهم اسم « الجزائريين » وحصروا « سكان البلاد الاصليين » ضمن صفتهم الدينية فسموهم ب «المسلمين» نافين عنهم بذلك صفتهم القومية . «م»

(٥) كان المجندون يختارون يومئذ بالقرعة ، وكان يحق للمقتدرين منهم ان يدفعوا اجرا ل « بديل » عنهم . ومن هنا كان الجيش الفرنسي النظامي يومئذ جيشا من الفقراء ، وبخاصة من الفلاحين . وكانت مدة الخدمة فيه سبع سنوات . «م»

(٦) حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) احرز فيها الجيش الفرنسي انتصارات باهرة على الجيشين الروسي والنمساوي . وقد اعتمد فيها للمرة الاولى =

يتألف الجيش الفرنسي اذن ـ اذا لم نعد لا الفرقةالاجنبية (المحلولة في الوقت الراهن ، لكن التي سيعاد تشكيلها كما تـدل الظواهر جميعا) (٧) ، ولا الافواج التأديبية الثلاثة ـ يتألف من ٣٨ فوجا تم تشكيلها وتدريبها للعمل على وجه التخصيص في المشاة الخفيفة . وضمن هذا التشكيل يتمتع الطرادة والزواويون والاتراك بسماتهم المميزة الخاصة . وقد تلبست هاتان الوحدتان الاخيرتان طابعا محليا بارزا يحول دون ان يكون لهما تأثير ذا شأن على سواد الجيش الفرنسي ، لكن بسالتهما في الهجوم ـ من دون ان تخرجا اثناءه عن طاعة رؤسائهما ، وان كانتا تستبقان اوامرهم بما تتمتعان به من حس خاص متميز بالشؤون العسكرية ، كما دلت على ذلك حرب ايطاليا ـ ستبقى مثالا باهرا يحتذى من قبل سائر القوات . ومن الحقائق الثابتة كذلك ان الفرنسيين تعلموا الشيء الكثير من العرب فيما يتعلق بتفاصيل قتال القناصة ، وكذلك من مهارتهم في الحركة الميدانية . بيد ان القسم الذي لبث فرنسيـا في جوهره من المشاة الخفيفة ، والذي صار ، كما ذكرنا آنفا ، قدوة للجيش ، انما يتمثل بالطرادة وسوف نتكلم عنهم مطولا في عددنا

= بصورة واسعة على قوات المستعمرات ، وكانت حربا مكلفة اذ قضى فيها ١٠٥٠٠٠ رجل (٢٠٠٠٠ في القتال ، و ٨٥٠٠٠ بالمرض) . اما حـرب ايطاليا (١٨٥٩) فقد حال توقيع هدنة دون فداحة تكاليفها ، وقد انتهت بتراجع محدود للنمساويين . «م»

(٧) في الواقع ، لم تكن الفرقة الاجنبية التي شكلت عام ١٨٣١ محلولة ، بل جرى سحبها من الجزائر واعيد تنظيم صفوفها لارسالها للاشتراك في الحملة التي وجهها نابليون الثالث ضد المكسيك عام ١٨٦١ . «م»

القادم (٨) .

★★★

لقد اثبتت حرب الجزائر للسلطات العسكرية الفرنسية التفوق الهائل لمشاة معتادين على تلك المسيرات الطويلة والسريعة. ومنذ ١٨٥٣ يدور النقاش لمعرفة ما اذا كان من الأنسب تعميم هذا النظام على الجيش بأسره .

★★★

لقد (٩) كان لدى الفرنسيين مدرسة ممتازة لمشاتهم الخفيفة فوق ارض الجزائر الخطرة الوعورة ، التي كان يذود عنها اشجع قناصة عرفهم العالم قط واعندهم واشدهم شراسة في الحرب .

والزواويون هم الذين استخدموا بنفع كبير الدروس التي اعطاهم اياهم سكان البلاد الاصليون . فصاروا بذلك قدوة لسائر

---

(٨) في العدد التالي ، ٥ تشرين الاول ١٨٦٠ ، تكلم انجلز بالفعل مطولا عن الطرادة وتنظيمهم . ولم يذكر الجزائر الا في معرض التنويه بالتفوق المكتسب في سرعة الحركة ودقة التصويب ، فقال : (راجع الفقرة اعلاه الموضوعة بعد علامة ★★★) . «م»

(٩) في المقال الثالث ، ٢٠ تشرين الثاني ١٨٦٠ ، ينهي انجلز كلامه عن الطرادة والزواويين باستخلاص ما يعتبره امثولة فتح الجزائر ، فيقول : (راجع الفقرة اعلاه) . «م»

الجيش (١٠) .

---

(١٠) هذه الاشادة غير المباشرة بالمقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي لم تمنع انجلز من مجاملة جمهوره القارىء الانكليزي ، فدعا في ختام مقاله الثالث الى ان يقوم الجيش الاستعماري الانكليزي في الهند باحتذاء مثال القوات الفرنسية في الجزائر ، وقال :

« ثمة مجال واسع ايضا لتحسين تلك الابتكارات . فلماذا لا يسهم الجيش الانكليزي بقسطه فيها ؟ لماذا لا تتوصل الحدود في شمال غربي الهند الى تنظيم القوات المتواجدة فيها حاليا في فيلق مؤهل لان يكون بالنسبة الى الجيش الانكليزي ما كانه ، بالنسبة الى الفرنسيين ، الطرادة والزواويون ؟ » .

ان انجلز ـ وقد كان رفاقه يلقبونه بالجنرال ـ يتشبث هنا بالتحليل العسكري الصرف ، داعيا الى تحسين تنظيم الجيش الانكليزي العامل في الهند ، دونما اعتبار لكونه جيش احتلال واستعمار . «م»

حول نظام ملكية الارض في الجزائر

كارل ماركس

هوامش ماركس على كتاب كوفاليفسكي (١)

الجزائر

ا ـ اشكال الانتفاع بالارض في الجزائر في زمن الفتح الفرنسي .

---

(١) بعد اكثر من عشرين سنة من نشر ماركس لمقاله عن بيجو ، عاد الى الاهتمام بالمسألة الجزائرية على اثر صدور كتاب العالم الروسي مكسيم كوفاليفسكي « الملكية الجماعية للارض : اسباب انحلالها وتاريخه ونتائجه » ، القسم الاول ، موسكو ١٨٧٩ . وكان ماركس آنئذ يهتم اهتماما خاصا بمسألة =

= الارض والاشكال الجماعية لامتلاكها . وكان يعرف كوفاليفسكي معرفة شخصية اذ التقاه في لندن . ولما وصله كتابه في ايلول ١٨٧٩ ، عكف على مطالعته والتعليق عليه . ثم كتب الى مؤلفه مباشرة . لكن رسائل ماركس الى كوفاليفسكي ضاعت ، لسوء الحظ ، او اتلفت اثناء فترة ملاحقة المثقفين الروس التقدميين عقب ثورة ١٩٠٥ . وهوامش ماركس على كتاب كوفاليفسكي تؤكد انشغاله في السنوات الاخيرة من حياته بالمشاعات القروية وتاريخ ملكية الارض . وبالمقابل ، فان صدور كتاب كوفاليفسكي في عام ١٨٧٩ جاء في وقت كانت فيه مسألة ملكية الارض في الجزائر موضوع مداولات برلمانية ونقاش بين المدارس الحقوقية الفرنسية . فعقب فتح الجزائر ، وابتداء من سنة ١٨٤٠ ، راح رجال القانون الفرنسي يبحثون عن مبررات « قانونية » لتجريد الجزائريين من ملكية اراضيهم ، فزعموا ان الدولة في الجزائر هي صاحبة الحق الاول في الارض باعتبارها دولة اسلامية . وبما ان الدولة الفرنسية هي وريثتها « قانونا » ، فان التصرف بالاراضي يصبح من حقها المشروع .

وكانت تلك هي نظرية الاستعمار الرسمي التي تبنتها الدولة الفرنسية لانها تتيح لها ان توزع على المعمرين الاراضي الجزائرية « العامة » . لكن مع تطور حركة الاستعمار والاستيطان في الجزائر ، راح المعمرون الفرديون ، المحتاجون الى شراء الاراضي ، يطالبون بطرح الاراضي الجزائرية للبيع في السوق الحرة ، وبتحويل ملكيتها الى ملكية فردية . وعلى الاثر ، رات النور مدرسة حقوقية فرنسية تزعم ان ملكية الارض في الجزائر لم تعد خاضعة للشرع الاسلامي منذ الاحتلال التركي ، وانها تحولت بالتالي الى ملكية خاصة قابلة للبيع والشراء . وفي اطار هذه المناقشة ، المحكومة بمصالح المعمرين الاوروبيين ، وفي اطار المناقشة الاوسع نطاقا والاقرب الى روح العلم المتعلقة بالاشكال التاريخية لملكية الارض وبالمشاعة القروية، =

(« المجلة الافريقية » ، ١٨٦٣ ، ص ٣٨) .

غوستاف بواسيير : « عرض لتاريخ الفتح والادارة الرومانية في افريقيا » ، باريس ١٨٧٨ .

ابن خلدون (ترجمة سلان) ، مؤرخ البربر .

مرسييه (بالفرنسية) : كيف عربت الجزائر؟ باريس ١٨٧٤ .

للمؤلف نفسه : تاريخ استقرار العرب في افريقيا الشمالية.

رود . دارست : الملكية العقارية في الجزائر ، ١٨٥٢ .

اوجين روب : قوانين الملكية العقارية في الجزائر .

هانوتو ولوتورنو : بلاد القبائليين والعادات القبائلية، ١٨٧٣ .

ليناردييه وكلوزيل : تاريخ الجزائر الفرنسية ، ١٨٤٦ (٢).

=. جاء كتاب كوفاليفسكي ليستعرض ، بالاضافة الى المشاعة القروية الروسية ، اشكالا تاريخية اخرى من الملكية الجماعية للارض ، ولا سيما في اوروبا الشرقية وآسيا (والهند خصوصا) وبعض البلاد الاسلامية والعربية .

ويبقى ان نقول ان ماركس ، في هوامشه ، نادرا ما يتدخل في نص كوفاليفسكي ، بل هو يكتفي بالتلخيص والنقل وبوضع خطوط تحت الجمل التي تبدو له هامة . وقد وضعنا اضافاته الشخصية ، وهي قليلة ، بأحرف سود نافرة . اما الارقام التي بين هلالين فهي ترجع الى ترقيم صفحات كتاب كوفاليفسكي . «م»

(٢) لا نملك من دليل على ان ماركس قرأ هذه الكتب التي اختارها من مراجع كوفاليفسكي . وهذه هي ، على حد علمنا ، المرة الوحيدة التي اشار فيها الى ابن خلدون . «م»

بخصوص حقبة السيطرة التركية في الجزائر ، علاوة على **المجلة الافريقية** ، المرجع البالغ الاهمية : جنتي دي بوسي : «حول استقرار الفرنسيين في ولاية الجزائر » ، الجزائر ١٨٣٣ ، من القطع الصغير . في **المجلة الافريقية** ، راجع « طوبوغرافيا الجزائر وتاريخها العام » بقلم البندكتي فراي ديغو دي هايدو ، رئيس دير فرومستا ، نقله عن الاسبانية الدكتور مونرو وبرغبروغر ١٨٧٠ .

الجزائر هي التي تحتفظ ـ بعد الهند ـ بأهم آثار الشكل القديم للملكية العقارية . فقد كانت الملكية القبلية والعائلية المشتركة الشكل الاكثر شيوعا فيها . وقد عجزت قرون من السيطرة العربية ، والتركية ، واخيرا الفرنسية ـ الا في الحقبة الاخيرة المتأخرة ، ورسميا منذ قانون ١٨٧٣ (٣) ـ عن تحطيم التنظيم القائم على اساس رابطة الدم والمبادىء النابعة منه : عدم جواز تقسيم الملكية العقارية والتصرف بها (١٩٧) .

الملكية العقارية في الجزائر فردية وجماعية ، الاولى تظهر في ارجح الظن تحت تأثير القانون الروماني ، وهي ما تزال سائدة الى اليوم لدى البربر من سكان البلاد الاصليين ، وكذلك لدى المغاربة والعبريين (٤) الذين يشكلون الجمهرة الرئيسية من سكان المدن. ويحتفظ بعض البربر ، ممن يسمون بالقبائليين ويقطنون في الشمال قرب شاطىء البحر الابيض المتوسط، بآثار كثيرة من الملكية

---

(٣) قانون ٢٦ تموز ١٨٧٣ ، المعروف باسم قانون وارنييه ، استهدف لا تصفية الملكية المشاعية فحسب ، بل كذلك الملكية العائلية المشتركة . «م»

(٤) المغاربة والعبريون : اي البورجوازية المسلمة واليهودية ، وعليه فان الملكية العقارية الفردية كانت مدينية . «م»

القبلية والمشاعية ، وهم ما يزالون يحيون الى اليوم ضمن اسر مشتركة ، متقيدين بصرامة بقاعدة عدم جواز التصرف بالملكية العائلية . وقد اقتبس القسم الاكبر من البربر عن العرب اللغة وطراز العيش وخصائص التنظيم العقاري (١٩٧ – ١٩٨) . ولا ريب في ان العرب هم الذين ادخلوا الاشكال الجماعية للملكية ، وفي مقدمتها الشكل القبلي (الموضع نفسه) .

هجمات العرب على الجزائر في النصف الاول من القرن السابع ، لكن بلا استيطان ، اذن بدون تأثير على المؤسسات المحلية ، لكن :

في منتصف القرن الحادي عشر خضع احد الزعماء البربر طوعا لخلافة بغداد (٥) . وكان اول العرب الذين استقروا في شمال الجزائر بني هلال وسليم . وقد اتاح عدم وقوف البربر الاصليين موقفا وديا من الفتح العربي ، الذي توقف بصورة مؤقتة في نهاية القرن الحادي عشر بحكم تأسيس امبراطورية مغربية موحدة ، اتاح امكانية اخضاع جميع بلدان الساحل الشمالي لافريقيا تدريجيا ، ومن بينها الجزائر . وكان صغار امراء البربر يلجؤون في كثير من الاحيان ، مدفوعين بخلافاتهم فيما بينهم ، الى القوات العربية ويكافئونها على مؤازرتها بمنحها ، على سبيل التملك التام ، اراضي واسعة ، شرط ان تخضع مذ ذاك فصاعدا للفريضة العسكرية لحسابهم . هكذا تواجد منذ اواخر القرن الثاني عشر العديد من المستوطنين العرب في القسم الساحلي من الجزائر الحالية ، المسمى بالتل . وفي اواخر القرن الرابع عشر

---

(٥) هو المعز من سلالة الزيريين البربر (١٠١٦ – ١٠٦٢) ، انفصل عن القاهرة، حيث كانت السيطرة للفاطميين وخضع لسلطان الخلافة العباسية في بغداد . «م»

توقفت تماما هجرات القبائل العربية ، الجزئية منها والعامة على حد سواء . ولهذا تحيا اليوم في الاماكن نفسها التي كانت تحيا فيها قبل خمسة قرون . وقد اختلط العرب على نطاق واسع بالسكان الاصليين ، واحتلوا منذ ذلك الحين كل الساحل الشمالي من افريقيا حيث ما يزالون موجودين الى اليوم . وقد وجدت الحياة الرعوية ، التي جلبوها من الجزيرة العربية ، في الخصائص المادية للبلاد التي احتلوها امكانية تطور جديد . فالهضبة الافريقية الشمالية ، التي لا يقطعها اي جبل كبير ، غنية بالمراعي الواسعة (١٩٩) .

لقد بقيت هذه المراعي ، من عهد الاستيطان العربي الاول الى ايامنا هذه ، ملكا مشتركا للقبائل البدوية التي تقطعها ذهابا وايابا . فالملكية القبلية يتم تناقلها لدى هؤلاء العرب من جيل الى جيل . ولم يطرأ عليها تعديل الا عقب التغييرات التالية : ١ ـ تجزؤ القبيلة (تدريجيا) الى عدة فروع . ٢ ـ تنسيب اعضاء ينتمون الى قبائل غريبة . اذن انفصال اقسام ثانوية الاهمية (من حيث المساحة) عن المراعي القروية ، وفي بعض الاماكن استبدال الملكية القبلية بملكية الجوار ، وبعبارة اخرى ، الملكية المشاعية (٢٠٠) .

ان التنظيم العقاري المتطور لدى القبائليين تحت التأثير العربي يتميز عن التنظيم العربي بالمزيد من الابتعاد عن النمط البدائي للملكية القبلية . صحيح انه توجد لديهم ايضا المسؤولية الجماعية عن الرسوم والاداءات العينية : فليس من النادر ان نلقى مشتريات ، من أموال المشاعة ، لابقار وماعز وخراف ، لا يلبث ان يوزع لحمها بين الاسر المؤتلفة . وقد كان معروفا عندهم ايضا الاستقلال الذاتي القضائي والاداري للقبائل ، وقد ظهرت لديهم المجالس القبلية كمجالس التحكيم في دعاوى الارث ، والسلطات القبلية هي وحدها التي تستطيع ان تمنح احدا ما اذنا بالاقامة بين

القبائليين ، ولا يسمح لاي شخص غريب عن القبيلة بدون اذنها باقتناء ملكية . وهؤلاء هم الحكام انفسهم الذين يوزعون الاراضي البور الى ملكية بين الاشخاص الذين جعلوها صالحة للزراعة واشتغلوها لمدة ثلاث سنوات على التوالي (٢٠٠) . زد على ذلك ان المراعي والغابات تخضع لدى القبائليين لنظام الاستثمار المشاعي، وفيما يتعلق بالارض المنزرعة ما يزال هناك بالنسبة الى الاهل والانسباء حق الشفعة ، وحق الشراء القبلي او المشاعي ، وحق المشاعة كلها في ميراث الاملاك التي يخلفها احد اعضائها . ويطبق هذا الحق الاخير بصور متفاوتة تبعا لـ « قانون » (٦) مختلف الفروع العائلية ـ اصول العرف . والفرع القبلي ـ القرية ـ مؤهل لدى بعضهم للوراثة بالتنافس مع اشقاء المتوفي ، وهذا غير ممكن ، لدى بعضهم الآخر ، الا في حال عدم وجود اي قريب آخر حتى الدرجة السادسة (٢٠١) . ومن جهة اخرى ، فان العائلة وحدها (الموضع نفسه) والعائلة المشتركة هي التي ما تزال لدىالقبائليين صاحبة الحق فيما يتعلق بالاراضي المنزرعة ، وعليه فان الاسرة المشتركة هي مالكة الارض . وهي تتألف من الاب والام والابناء وزوجاتهم واولادهم واولاد اولادهم (**احفادهم**) والاعمام والعمات وابناء الاخوة وابناء الاعمام . وتدار املاك الاسرة عادة من قبل اكبر افرادها سنا ، بعد انتخابه من قبلهم جميعا . فهو يشتري ويبيع ، ويؤجر الاراضي ، ويشرف على البذار وعلى اجتناء الحبوب ، ويعقد اتفاقات تجارية ، ويدفع عن الاسرة ويقبض المدفوعات التي تعود اليها . وسلطاته ليست مطلقة البتة . ففي جميع الاحوال الهامة ، وبخاصة عند بيع الاموال غير المنقولة

---

(٦) بالعربية في النص : KANOUN . «م»

وشرائها ، يكون ملزما باستشارة جميع اعضاء الاسرة . وفيما خلا ذلك ، يستطع التصرف بلا قيد بالاملاك العائلية . واذا اتضح ان ادارته ضارة بمصالح الاسرة ، حق لهذه الاخيرة ان تقيله وان تعين مكانه مديرا جديدا (٢٠٢) . وادارة بيت الاسرة المشتركة توضع بتمامها بين يدي اكبر النساء سنا (**انظر لدى الكرواتيين**) او اكثرهن اهلية للاشراف عليه ، وتنتخب في كل مرة من قبل جميع اعضاء الاسرة ، كذلك لا يندر ان تتعاقب النساء على هذه المهمة (الموضع نفسه) .

تقدم الاسرة لكل واحد من اعضائها ادوات العمل ، وسلاحا ناريا ، والرساميل اللازمة للتجارة او الحرفة اليدوية . وعلى كل واحد من اعضائها ان يكرس عمله للاسرة ، اي عليه ان يسلم جميع المداخيل المتأتية من عمله الى زعيم الاسرة ، تحت طائلة الطرد من الاسرة. امافيمايخص الملكيةالفردية فانهاتقتصربالنسبة الىالرجال ـ وهذا فيما يتعلق بالاموال المنقولة ـ على الثياب ، وبالنسبة الى النساء على الملابس اليومية (**انظر لوتورنو**) وعلى الحلي التي يتلقينها على سبيل المهر (**او بالاحرى على سبيل الهدية**) يوم زفافهن ، وهذا باستثناء الملابس الفاخرة والقلائد الثمينة التي تبقى ملكية مشتركة للاسرة وان جاز لهذه المراة او تلك استعمالها (**انظر لدى السلافيين الجنوبيين**) . اما بخصوص الاموال غير المنقولة التي يتلقاها احد الاعضاء هبة او ارثا ، فانها تعتبر ملكية فردية له ، ولكن الانتفاع بها يكون من حق الاسرة بكاملها (الموضع نفسه) . واذا كان عدد اعضاء الاسرة قليلا ، فان تناول وجبات الطعاميكون على مائدة مشتركة ، وتقع مهمة الطهي على جميع الاناث من الاعضاء بالتناوب . وعندما يغدو الطعام جاهزا تتولى ربة البيت (زعيمة الاسرة الانثى) تقديمه لكلّ عضو (الموضع نفسه) .

اما اذا كان تعداد الاسرة كبيرا ، فان المؤن يجري تقاسمها

شهريا ، عدا اللحم الذي يوزع نيئا بين اعضاء الاسرة ضمن آجال غير محددة ، بعد كل شراء وذبح للماشية . وعند توزيع المؤن يتقيد رب الاسرة بمساواة دقيقة بين الاعضاء (٢٠٢ ـ ٢٠٣) . وبعد ذلك : وجود الاخذ بالثأر كمؤسسة : فكل فرد يمكن ان يعد مسؤولا ، اي ان يدفع حياته ثمنا لجريمة قتل ارتكبها عضو آخر في الاسرة . ان الاسرة المشتركة لدى القبائليين ، من حيث انها اتحاد اشخاص واموال معا ، تبقى ظاهرة حية بملء معنى الكلمة. وساعة تحضر ارباب الاسرة الوفاة ، يوصون اولادهم بالبقاء في ظل نظام الشيوع (٢٠٣) . بيد ان الانفصال والتقسيم ليسا بالنادرين في الحياة العملية . وطبقا لما تزعمه الحكمة الشعبية فان النساء هن المسؤولات الرئيسيات عن ذلك. وثمة قول مأثور قبائلي: «كثرة الكلام في الفراش تفضي بالاسر الى الانقسام » . ويجري عادة تقسيم اموال الاسرة وفق قواعد تقسيم الميراث نفسها . وفي اكثر الاحيان تؤخذ بعين الاعتبار لا درجة القرابة فحسب ، بل كذلك اهمية مساهمة كل شخص على حدة في الثروة المشتركة . ولا يجري التقيد بتساوي الحصص الا عند تقسيم المؤن السنوية والحبوب وزيت الزيتون ، الخ . (الموضع نفسه) . والاكثر شيوعا من التقسيم الافتراق عن المشاعة ، وهو ما يمكن ان يطالب به كل عضو طبقا للعرف السائد . وفي هذه الحال ، تسلم له الحصة التي كان من الممكن ان تعود اليه في حال الارث المشروع ، وكذلك بالنسبة الى مجمل المال الفردي الذي وضعه تحت تصرف الاسرة . وبعد رحيل احد اعضاء المشاعة العائلية ، تواصل هذه حياتها كما في السابق ، على الشيوع (٢٠٣ ، ٢٠٤) .

اذن ، لئن عرف القبائليون الملكية الفردية للارض ، فما ذلك الا على سبيل الاستثناء . فهنا كما في كل مكان ، تظهر الملكية الفردية بوصفها حصيلة سيرورة وئيدة لانحلال الملكية القبلية

والمشاعية والعائلية (٢٠٤) .

ان انحطاط الاشكال الجماعية لوضع الملكية العقارية ، الناجم هنا كما في كل مكان آخر عن اسباب داخلية ، قد تسارع تسارعا مرموقا لدى العرب والقبائليين الجزائريين بنتيجة الفتح التركي في نهاية القرن السادس عشر . فالاتراك ، طبقا لشرائعهم ، تركوا البلاد بوجه عام بين ايدي القبائل التي كانت تمتلكها ، لكن قسما هاما من الاراضي غير المزروعة ، التي كانت ملكا فيما غبر للقبائل، اضحى ملكية اميرية . هذه الاراضي ــ المسماة بالحوش او عزب البك ــ زرعت على نفقة الحكومة التركية . ولهذا الغرض تسلف البكوات المحليون ، من اموال خزائن الدولة ، ماشية جر وادوات زراعية، وقدم السكان الاصليون اليد العاملة اللازمة لجني المحصول. بيد ان القسم الاكبر من الاراضي الاميرية لم يبق تحت الادارة المباشرة للحكومة ؛ بل انتقل الى ايدي المزارعين الذين كان قسم منهم ملزما بأن يسدد كل سنة قدرا معلوما من الضرائب النقدية الى خزائن الدولة ، والقسم الآخر ملزما بأن يؤدي بعض الرسوم والدفوعات العينية لصالح الادارة الاميرية . اذن ، ثمة صنفان من الاراضي المستأجرة : ١ ــ « العزل » الذي يدفع ريعا نقديا ، ٢ ــ « التويزة » الملزمة بدفع رسوم ودفوعات عينية . والمزارعون من كلا الفئتين لا يقبلون الا بشرط زراعتهم للارض . فاذا لم يفعلوا ذلك على مدى ثلاث سنوات ، سحبت منهم اراضيهم التي يسلمها بيت المال الى اشخاص آخرين (٢٠٤ ، ٢٠٥) .

لقد اسس الاتراك ، احتماء من الفتن ، وعلاوة على القوات الاهلية المحلية التي كانت ما تزال موجودة ، مستوطنات عسكرية **(يصفها كوفاليفسكي خطأ بأنها ((اقطاعية)) بحجة باطلة وهي انه كان يمكن ان ينجم عنها شيء يشبه ــ مع التحفظ النسبي ــ**

الجاغير (٧) لدى الهندوس) ، وكانت تسمى « زمالة » . هي اذن مستوطنات عسكرية تركية ، انشئت بين ظهراني السكان الاصليين، ثم اكملت رويدا رويدا بخيالة عرب وقبائليين . وكان كل مستوطن يتلقى من الحكومة ، مع قطعة ارضه ، الحبوب اللازمة للبذار وحصانا وبندقية ، وبالمقابل كان ملزما بالخدمة العسكرية مدى الحياة داخل حدود المقاطعة ــ اي « القيادة » (٨) ، وكانت هذه الخدمة تعفي ارضه من الضريبة . وكانت مساحة قطعة الارض تتفاوت تبعا لالتزامات مالكها ، وكانت قطعة الارض الكاملة تلزم صاحبها بالمثول لدى اول استنفار للقوات في صفوف الخيالة التركية ، وكانت نصف القطعة من الارض لا تلزم الا بالخدمة في المشاة (٢٠٥ ، ٢٠٦) .

وكانت « الزوجة » (٩) من الارض المنزرعة تعادل قطعة ارض كاملة ، وكان اعضاء الزمالة يسمون بـ « المخزن » (٢٠٦) .

لقد راحت مساحة الاراضي التي تشغلها الاملاك الاميرية والمستوطنات العسكرية تكبر مع كل جيل ، عقب مصادرات لاملاك تخص قبائل متمردة ، او فقط تحوم حولها شبهة التمرد . وكان القسم الاكبر من الاراضي المصادرة يباع من قبل السلطات في السوق العامة بوساطة البكوات . ومن هنا كانت نهضة (بدأها الرومان) الملكية الخاصة للارض . وكان الشراة في غالب الاحيان

---

(٧) الجاغير : نوع من الاجارة الزراعية المقرونة بالالتزام بخدمة عامة لدى المغول . «م»

(٨) باللفظ العربي او التركي في النص CAIDAT . «م»

(٩) باللفظ العربي في النص ، والصحيح هو « الزويجة » . والزويجة هي مساحة الارض التي تمكن زراعتها بزوج من الدواب ، وتقدر عادة بعشرة هكتارات . «م»

اشخاصا عاديين ينتمون الى السكان الاتراك . هكذا رات النور رويدا رويدا فئة هامة من الملاك العقاريين الخاصين ، وكان سند ملكيتهم يتألف فقط من ايصال مصلحة الضرائب يؤكد واقعة شراء قطعة الارض في السوق العامة وسداد المشتري للمبلغ المترتب عليه بحكم ذلك للسلطة ، وكانت تلك الايصالات تسمى BEIL—EL—MAL (١٠) وكان معترفا بها قانونيا نظير سائر المستندات العقارية (مستندات الشراء ، الهبة ، الرهن) (٢٠٦). وقد شجعت الحكومة التركية في الوقت نفسه على نطاق واسع تركز الملكية الخاصة بين ايدي مؤسسات دينية او خيرية . وكثيرا ما حفزت فداحة الضرائب والسهولة التي تلجأ بها الحكومة الى المصادرة الملاك الخاصين على تسليم سندات ملكيتهم لمؤسسات من ذلك النوع ، اي على تأسيس « وقوف » او « حبوس » (١١) (يقبل سيدي هليل (١٢) ، وهو من كبار الثقات في تفسير المذهب المالكي ، بامكانية تنازل الافراد عن هذه الارض او تلك ، عن هذا الدخل او ذاك ، لا على سبيل الملكية الوراثية فحسب ، بل كذلك على سبيل الانتفاع المؤقت مدى الحياة) . وكانت تلك الاموال تصبح بحكم ذلك طليقة من الضرائب وبمنجى من المصادرة ؛ وكان التنازل يتم بشرط ، وهو ان ينتفع المالك القديم للارض المتنازل عنها لـ « الوقف » بها مدى الحياة ، وفي اغلب الاحيان بصفة وراثية . وبالمقابل ، كان عليه ان يؤدي دفوعات نقدية وعينية

---

(١٠) يقصد بيت المال . ولكنه ذكر BEIL بدلا من BEIT . «م»

(١١) باللفظ العربي في النص . «م»

(١٢) هكذا في النص ، والصحيح هو سيدي خليل ، وهو فقيه جزائري مالكي كان حجة في القانون الاسلامي ، وقد ترجم كتابه «الوجيز في الفقه الاسلامي» الى الفرنسية منذ عام ١٨٤٤ ــ ١٨٤٥ . «م»

(**روبوتزاهلنوغ**) للمؤسسة (٢٠٦ في ٢٠٧) [الوثائق الاساسية في « المجلة الافريقية » التي تصدرها جمعية التاريخ الجزائرية ، انظر على سبيل المثال عام ١٨٦١] .

لم تفض السيطرة التركية بصورة من الصور الى تطور اقطاعي على المنوال الهندوستاني (في زمن انحطاط ادارة المغول). والسبب الذي حال بينها وبين ذلك التطور هو المركزة الشديدة للادارة المدنية والعسكرية في الجزائر . فقد كانت هذه المركزة تحول دون امكانية احتكار وراثي للوظائف المحلية وتمنع تحول القائمين عليها الى ملاك اراض كبار شبه مستقلين عن الدايات . وكان جميع الدايات والقادة المحليون ، الذين يلتزمون عادة جبي الضرائب في مناطقهم ، لا يبقون في الوظيفة سوى سنوات ثلاث . وكان هذا الدوران منصوصا عليه في القانون بدقة ، وكان عمليا يتم بسرعة اكبر . اذن ، انما لدى العرب وحدهم شجعت الحكومة التركية تطور الملكية الخاصة على حساب الملكية « المشاعية » . وطبقا للمعلومات الاحصائية التي جمعها النائب وارنييه في الجمعية الوطنية (الهيئة التشريعية ، ١٨٧٣) ، كان الوضع العقاري في التل ، اي في المنطقة الساحلية ، كالتالي زمن الفتح الفرنسي :

ملكية اميرية : مليون ونصف مليون هكتار ، وهي موضوعة ، كما مر آنفا ، تحت تصرف الدولة بصفة اموال مشتركة (بلاد الاسلام) (١٣) بين جميع المؤمنين الصادقين . وثلاثة ملايين هكتار من الاراضي البور . (ملك) (١٣) (ملكية خاصة) : ثلاثة ملايين هكتار ، منها مليون هكتار موزعة بين البربر ، ومليون ونصف مليون هكتار اضيفت اليها بطريق التملك الخاص في ظل السيطرة التركية .

---

(١٣) باللفظ العربي في النص . «م»

انتفاع على الشيوع للقبائل العربية (أرش) : خمسة ملايين هكتار .

فيما يخص الصحراء ، ثلاثة ملايين هكتار فقط داخل الواحات ، كملكية عائلية مشتركة في جزء منها ، وفي الجزء الآخر كملكية خاصة . اما باقي الصحراء ، ومساحته ثلاثة وعشرون مليون هكتار ، فانه عبارة عن صحراء من الرمل (٢٠٨ ، ٢٠٩) .

ب ـ الادارة الفرنسية وتأثيرها على افول الملكية الجماعية للاراضي لدى السكان الاصليين .

مساجلات في حوليات الجمعية الوطنية ، ١٨٧٣ ، م ١٧ ، باريس ١٨٧٣ ، م ١٨ (العدد ١٧٧٠) .

تقرير السيد وارنييه الى الجمعية الوطنية (١٨٧٣) .

برون : الوجيز في الفقه الاسلامي بقلم خليل بن اسحق ، منقول عن العربية .

مشروع خطة عامة للاستيطان ، الجزائر ١٨٦٣ .

التقرير الاول للسيد ديديه باسم لجنة الجمعية التشريعية ١٨٥١ (نقلا عن روجيه روب : قوانين الملكية اللامنقولة في الجزائر) .

كادوز : القانون الاسلامي المالكي . باريس ١٨٧٠ (يثبت كادوز جهل برون في القانون ، وجهل معظم الذين يطلقون على انفسهم اسم المستشرقين) .

كان تأسيس الملكية العقارية الخاصة **(في نظر البورجوازي**

الفرنسي) الشرط الذي لا غنى عنه لكل تقـــدم في المضمارين السياسي والاجتماعي . والحفاظ على الملكية المشاعية ، وهي « شكل يشجع الميول الشيوعية في التفكير » (مناقشات الجمعية الوطنية ، ١٨٧٣) ، خطير على المستعمرة كما على المتروبول . من هنا كان السعي الى تقسيم الملكيات العائلية ، بل فرضه فرضا ، اولا كوسيلة لاضعاف القبائل الخاضعة التي تقف على الدوام على اهبة التمرد ، وثانيا كسبيل وحيد الى نقل الارض في وقت لاحق من ايدي الاهالي الى ايدي المعمرين الاوروبيين (٢١٠ ، ٢١١) . سياسة انتهجها الفرنسيون عبر كل التغيرات المتعاقبة على النظام من ١٨٣٠ الى ايامنا هذه . وكثيرا ما تنوعت الوسائل ، لكن الهدف بقي واحدا على الدوام : القضاء على الملكية الجماعية الاهليـــة باطلاق حرية البيع والشراء ، مما يسهل انتقالها في خاتمة المطاف الى ايدي المعمرين الفرنسيين (الموضع نفسه) . صرح النائـب همبر في جلسة ٣٠ حزيران ١٨٧٣ اثناء مناقشة مشروع قانـون : « ما هذا القانون الا تتويج لسلسلة من القرارات والمراسيـــم والقوانين وقرارات مجلس الشيوخ التي تهدف جميعها الى تهيئة تنظيم الملكية الفردية في اراضي الجزائر العربية » (الموضع نفسه)

لقد كان الهم الاول للفرنسيين ، بعد ان فتحوا قسما مــن الجزائر ، اعلان الجزء الاكبر من الاراضي المفتوحة ملكية للحكومة (الفرنسية) . والذريعة هي المذهب ، الشائع لدى المسلمين ، القائل ان الامام يملك الحق في اعلان ارض الاهالي « وقفا » قوميا، وهذه هي في الواقع الـ DOMINIUM EMINENS (السلطة العليا) للامام ، السلطة التي يقر بها الفقه المالكي والفقه الحنفي على حد سواء . لكن هذا الحق [انظر برون : ترجمة « الوجيز في الفقه الاسلامي » لخليل بن اسحق ، م٢ ، ص ٢٦٩ وما يليها ، الخ] لا يسمح له الا بأن يجبي الضرائــب (الجزية) عن الســكان

الخاضعين . وهذا ، كما يقول خليل ، « للحفاظ على وسائل تلبية حاجات ذرية النبي وكل الامة الاسلامية » . وبديهي ان لوي ـ فيليب، بوصفه خليفة الامام، او بالاحرى خليفة الدايات الخاضعين يضع يده لا على الملكية الاميرية فحسب ، بل كذلك على جميع الاراضي غير المحروثة ـ بما فيها اراضي الجماعة : المراعي الغابات ، الاراضي البور (٢١٢) .

أن الاوروبيين حين يجدون قانونا اجنبيا ، غير اوروبي ، « مفيدا » لهم ـ كما هي الحال هنا بالنسبة الى القانون الاسلامي ـ لا يعترفون به ـ للحال ! ـ فحسب ، بل « يخطئون في تأويله » لا لصالح احد غير صالحهم ، كما في المثال الحالي . أن الجشع الفرنسي لا يخفي نفسه (١٤) : فلئن كانت الحكومة وتبقى المالك الاول للبلاد كلها ، فلا موجب للاعتراف بمطالبات القبائل العربية والقبائلية بهذه القطعة من الارض او تلك ، ما دامت تلك القبائل عاجزة عن تأييد ملكيتها بوثائق مكتوبة . هكذا نجد من جهة اولى الملاك السابقين على الشيوع وقد حولوا الى شاغلين مؤقتين لملك حكومي ، ونجد من الجهة الثانية نهبا بالقوة لاقسام كبيرة من الارض المأهولة بالقبائل وتوطينا لمعمرين اوروبيين عليها . لائحة ٨ ايلول ١٨٣٠ ولائحة ١٠ حزيران ١٨٣١ بهذا الخصوص الخ . ومن هنا كان نظام الحصر ، اي تقسيم الارض القبلية الى شطرين: شطر يترك لافراد القبائل ، وشطر تحتفظ به الحكومة بغرض توطين المعمرين الاوروبيين فيه . وقد تركت الاراضي التي على الشيوع ، في عهد لوي ـ فيليب ، تحت التصرف الحر للادارة المدنية ـ العسكرية المقامة في المستوطنة . وبموجب قرارات ٢١

---

(١٤) لعله يجدر ان نعود الى التنبيه بأن العبارات المطبوعة بحرف اسود نافر هي لماركس ، اما كل ما تبقى من النص فمنقول عن كوفاليفسكي . «م»

تموز ١٨٤٦ ؛ جرى الاعلان على العكس عن عدم جواز انتهاك حرمة الملكية العقارية الخاصة في محافظة الجزائر وفي اقضية بليـــده ووهران ومستغانم وعنابة. لكن هنا ايضا احتفظت الحكومة لنفسها بحق المصادرة ، لا في الحالات التي ينص عليها القانون المدني فحسب، بل كذلك في كل مرة يكون فيها ذلك ضروريا من اجل توســيع مستوطنات قديمة او تأسيس مستوطنات جديدة ، ومن اجل الدفاع العسكري او اذا ما تضررت مصالح الخزينة من امتناع الملاك عن زراعة اراضيهم (٢١٢ ، ٢١٣) [قرارات ٨ ايلول ١٨٣٠، و١٠ حزيران و ١١ تموز ١٨٣١ ، و ١ و٣ كانون الاول ١٨٤٠ ، والمراسيم الملكية في ٣١ تشرين الاول و٢٨ تشرين الثاني ١٨٤٥ ، و١ تشرين الاول ١٨٤٤ ، و٢١ تموز ١٨٤٦] .

ما كان معظم مقتني الارض من الفرنسيين (**الافراد**) يفكرون بحال من الاحوال بزراعتها ، بل كانوا يضاربون على اعادة بيـــع الاراضي بالمفرق . فقد كان الشراء بأسعار متدنية الى حد مضحك والبيع ثانية بأسعار مرتفعة نسبيا يبدو لهم تثميرا مربحا لرساميلهم. لقد كان هؤلاء السادة يتلهفون الى عقد عقود شراء بالجملة مــع عائلات مفردة ، دونما اعتبار لعدم جواز التصرف بالممتلكات القبلية. وكان الاهالي يقدمون ، مستغلين حمى المضاربة التي ارتفعت فجأة مع وصول بنات آوى الفرنسيين ومعتمدين على ان الحكومة الفرنسية لن تتمكن من الاحتفاظ بالبلاد لحقبة طويلة من الزمن ، كانــوا يقدمون بحبور على تحويل ملكية هذه القطعة او تلك من الارض الى اثنين او ثلاثة من الشراة في آن واحد في كثير من الاحيان ، قطعة من الارض لا وجود لهـــا بالمرة او هي جزء من ممتلكات القبيلة الجماعية . وحينما شرع بالتحقق من صحة سندات الملكية امام المحاكم ، اتضح ان اكثر من ثلاثة ارباع الاراضي المباعــة تخص عدة اشخاص في آن واحد (انظر المقتطف من كراســة

« مشروع خطة عامة للاستيطان » ، الجزائر ١٨٦٣ ، هامش ٢ ، ص ٢١٤) . فماذا فعلت الحكومة الفرنسية ؟ **يا للدناءة** ! بـدات بالمصادقة على انتهاك العرف باضفائها طابعا شرعيا على جميـــع التنازلات وتحويلات الملكية التي تمت بصورة غير مشروعة ! في قانون ١ تشرين الاول **تعلن** [**تلك الحكومة البورجوازية عينها التي كانت نصبت نفسها مالكا أوحد للتراب الجزائري بفضل تفسير خاطىء للقانون الاسلامي**] : « **كل عقد تخلية الملكية عقار ارتضاه احد الاهالي (حتى عندما يبيع ما لا يملكه ! ك.م)** لصالح اوروبي لا يجوز الطعن فيه بحجة ان العقارات كانت غير قابلة للتصرف فيها بموجب القانون الاسلامي » . **وعلاوة على مصلحة المعمرين ،** كانت الحكومة تضع نصب عينيها اضعاف السكان الخاضعين عن طريق تفتيت التنظيم القبلي المشاعي (هكذا يعلن النائب ديديه عام ١٨٥١ في تقرير الى الجمعية الوطنية : « علينا ان ننشـّـط تدمير الجماعات (١٥) القائمة على الدم : ففيها يتواجد زعمـــاء المعارضة لسيطرتنا ») (٢١٤ ــ ٢١٦) . **ان خـوف الحكومـة** الفرنسية من اثارة السكان عليها ورغبتها في تأمين السوق النقدية مستقبلا من الهزات التي تستتبعها لا محالة المضاربات على سندات ملكية وهمية ، قد حملاها على التخلي عن العمل بنظامها الاستيطاني لاحقا . اضف الى ذلك ان العرب افلحوا في اكثر الاحوال في ان يشتروا من جديد ، من المعمرين الاوروبيين من جهة ومن الحكومة نفسها من الجهة الاخرى ، جميع الاراضي التي كانت قد حولـت

---

(١٥) في الحقيقة ان العسكريين والساسة الفرنسيين من امثال النائب ديديه كانوا يتكلمون بالاحرى عن « روابط الدم » . ولكن نظرا الى اهتمـــام كوفاليفسكي بمسألة المشاعة القروية ، فقد خلط بين المعنيين الاثنين لكلمــة Communauté كرابطة دم وكشكل قبلي للتنظيم الجماعي (مشاعة) . «م»

ملكيتها او انتزعت منهم . هكذا آل نظام الحصر الى فشل ذريع. **وهذه المحاولة بالتحديد هي التي لفتت الانظار الى واقع حيوية نمط الملكية العقارية القبلي ـ المشاعي** . فما عاد يكفي تجاهله ، بل بات من الضروري الانتقال الى تدابير عينية لتصفيته (٢١٦) . وهذا ما استهدفه قرار مجلس الشيوخ في ٢٢ نيسان ١٨٦٣ . فقد اعترف بشرعية حق القبائل في الملكية فيما يتعلق بقطع الاراضي المشغولة من قبلها، لكن على ان تقسم هذه **الملكية الجماعية** لا بين الاسر فحسب، بل كذلك بين اعضاء كل اسرة . وقد صرح الجنرال آلار ، المكلف من قبل مجلس الدولة بالدفاع عن مشروع القانون ، من جملة من صرحوا امام مجلس الشيوخ : «لن يغيب عن انظار الحكومة واقع ان اتجاه سياستها يجب ان يكون بوجه عام اضعاف تأثير الزعماء وتفتيت القبيلة . على هذا النحو ستقشع شبح الاقطاع الذي يبدو ان خصوم قرار مجلس الشيوخ يريدون معارضته به .. فتأسيس الملكية الفردية وتدخل الاوروبيين في القبيلة .. سيكونان واحدة من اقوى وسائل التفتيت » . وتتوقع المادة ٢ من قرار مجلس الشيوخ لعام ١٨٦٣ ان يتم ، في مستقبل قريب ، وبموجب مرسوم امبراطوري : ١ ـ تحديد حدود اراضي القبائل ، ٢ ـ توزيع التل وسائر المناطق الزراعية بين مختلف دوارات (١٦) كل قبيلة باستثناء الاراضي التي يفترض فيها ان تحافظ على صفة الاملاك البلدية ، ٣ ـ تأسيس الملكية الفردية بين اعضاء تلك الدوارات ، حيثما اتضحت امكانية ذلك الاجراء وفائدته . وكان نابليون الثالث نفسه ضد البند الثالث هذا :

---

(١٦) الدوار في شمالي افريقيا : محلة تتضمن عددا من الخيام او البيوت وزرائب للماشية . «م»

انظر رسالته الى الماريشال ماك ـ ماهون (١٧) ١٨٦٥ (ص ٢١٧ ، هامش ٢) . وقد امر بادنغه (١٨) ، بموجب بلاغ حكومي صدر بموافقة مجلس الدولة ، بانشاء لجان خاصة لتطبيق التقسيم . وكانت كل لجنة تتألف من جنرال قائد لواء او كولونيل رئيسا ، ومن وكيل وال او مستشار وال ، ومن موظف في المكتب المقاطعي او العسكري العربي ، ومن موظف في ادارة العقارات . وقد عهد الى الجنرال حاكم مدينة الجزائر بتسمية اعضاء اللجنة . وكانت مصادقة الامبراطور غير مطلوبة الا بالنسبة الى تسمية الرؤساء . وكانت اللجان الفرعية تضم موظفين من الادارة المحلية في الجزائر (لائحة الادارة العامة بتاريخ ٢٣ ايار ١٨٦٣) . وكانت اللجنة الفرعية مكلفة بجميع الاعمال التمهيدية : جمع المعطيات لتعيين حدود القبائل بدقة ، وحدود كل بطن من بطونها ، وحدود الاراضي المنزرعة والمراعي ضمن هذه الاراضي ، واخيرا حدود الممتلكات الخاصة والاميرية الداخلة في اطار الدائرة القبلية . ويأتي بعد ذلك دور اللجنة : تثبيت حدود الاراضي العائلية الخاضعة للتقسيم ميدانيا وبحضور مندوبي القبائل المجاورة . ومن الجهة الثانية : تثبيت الاتفاقات المعقودة بالتراضي بين المالكين الخاصين للاراضي (الداخلة ضمن نطاق حدود العقار القبيلي) وبين القبيلة. واخيرا : قرارات قضائية في حال شكوى القبائل المجاورة من وقوع اجحاف في تحديد حدود الممتلكات التي كانت تخصها .

---

(١٧) حاكم الجزائر آنئذ ، وكان اول من تكلم عن منح عرب الجزائر صفة الفرنسيين . «م»

(١٨) بادنغه : اللقب الذي كان يطلقه ماركس وسائر معارضي الامبراطورية الثانية على نابليون الثالث . «م»

وعلى اللجنة ان ترفع تقريرا بكل الاجراءات التي تتخذها الى حاكم الجزائر العام **الذي يرجع اليه حق القرار النهائي** (ص ٢١٨) . انظر النص الكامل للائحة ٢٣ ايار ١٨٦٣ ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

طبقا لتقرير وارنييه ، رئيس لجنة صياغة مشروع القانون بصدد « الملكية الخاصة » في الجزائر ، المرفوع الى الجمعية الوطنية لعام ١٨٧٣ (انظر حوليات الجمعية الوطنية ، م ١٧ ، الملحق رقم ١٧٧٠) ، تم بين ١٨٦٣ و ١٨٧٣ تقسيم ٤٠٠ من الممتلكات من اصل اجمالي = ٧٠٠ بين قرابات العصب الواحد الداخلة في تركيب القبائل ، اي بين الانسباء الاقربين (بالدم) الذين تلقى كل واحد منهم عقارا محدد الحدود [اعترفت السلطة العامة كذلك بالملكيات الاميرية والخاصة الداخلة من الاساس في حدودها] . وقد كان من السهل تطبيق هذا القسم من لائحة ١٨٦٣ لان تلك التجزئة ــ الشبيهة بالتطور الذي ادى الى انفصال مشاعات حرة او شبه حرة او قنة عن « المارش » الجرماني القديم ــ كانت قد بدات قبل الفرنسيين بحقبة مديدة ، وذلك في عهد السيطرة التركية على الجزائر .

اوجين روب : « قوانين الملكية العقارية في الجزائر » ، ص ٧٧ ، يلحظ بهذا الخصوص : « سرعان ما كف الزعيم عن ان يكون شيخا ، وآل الى مجرد قائد ، وامست السلطة الابوية سلطة شرعية ، سياسية ، رسمية ، وبدات عملية تخلع تدرجية ، غير منظورة ، اولا في الافكار ، ثم في الوقائع . وضعف حس عصبية الدم وانكمش ، وانفصلت الفروع عن الجذع . وانعزلت مجموعات ذوي القربى على نفسها (**القرى**) . وامست كل خيمة مركز عناية خاصة ، مركز اسرة خاصة لها بطبيعة الحال حاجاتها الخاصة ومطامحها الانانية وميولها الضيقة . على هذا النحو كفت القبيلة عن ان تكون اسرة كبيرة ، وحدة قرابة ، لتؤول الى مجرد مركز

سكاني ، اتحاد كونفدرالي من الخيم له طابع سياسي ورسمي اشد بروزا » . وعلى هذا النحو وجدت اللجنة نفسها ، عند المباشرة بتطبيق ذلك البند من لائحة ٢٣ ايار ١٨٦٣ ، في مواجهة قبائل منقسمة على نفسها من الاساس الى فروع . فما كان عليها الا ان تضفي صفة القانون على ما هو قائم في الاساس واقعيا منذ امد طويل (٢١٩ ، ٢٢٠) .

لكن لم يكن كذلك شأنها في مهامها الاخرى : توطيد الملكية الخاصة ضمن حدود تلك الفروع . لقد كان من المفروض ان يتم ذلك ، طبقا للبند ٥ من المادة ٢٦ من اللائحة ، بحيث تؤخذ بعين الاعتبار شتى انماط الاعراف التاريخية ، اي بالتالي بعد الاقرار المسبق بها . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . فقد اهملت هذه النقطة في عهد بادنغه (انظر ص ٢٢١ — ٢٢٢) .

ينبغي ان نذكر هنا من تقرير وارنييه ان صعوبة التقسيم في الجزائر نجمت ، في ما نجمت ، عن الشروط الاقتصادية الشديدة التفاوت لافراد القبائل . ففي ١٤٢ قبيلة كان هناك للشخص الواحد من ١ الى ٤ هكتارات ، وفي ١٤٣ كان هناك من ٤ الى ٨ ، وفي ٨ من ٨ الى ١٦ ، وفي ٣٠ من ١٦ الى ١٨٥ [يخلق التقسيم في الوقت نفسه ملاكا عقاريين كبارا وصغارا ، بعضهم قادر بشق الانفس على تأمين معاشه عن طريق الزراعة ، وبعضهم الآخر عاجز عن استثمار كامل الاراضي التي تعود اليه ملكيتها (ص ٢٢١ ، هامش) . وهكذا لم ينجم شيء عمليا عن تدابير مصادرة ملكية القبائل العربية لصالح المعمرين الاوروبيين . فبين ١٨٦٣ و ١٨٧١ لم يشتر المعمرون الاوروبيون من الاهالي في المحصلة الاخيرة حتى ولا ٢٠٠٠٠ هكتار اكثر مما باعوهم . وفي الواقع ، وسنويا ، فقط ٢١٧٠ هكتارا و٢٩ آرا و ٢٢ سنتيارا ، اي ما لا يكفي من الارض حتى لاقامة قرية واحدة عليها ، كما يلاحظ ذلك وارنييه (انظر التفاصيل ص ٢٢٣ ، وبخاصة الهامش) .

١٨٧٣ . كان الشاغل الاول اذن لـ « جمعية الريفيين » (١٩) لعام ١٨٧٣ اتخـــاذ تدابـير انجـــع لانتزاع الارض من العرب [**مناقشات تلك الجمعية المجللة بالعار بصدد مشروع « ادخـال الملكية الخاصة » الى الجزائر ترمي الى التستر على عمليات النصب المرتكبة تحت غطاء القوانين الازلية المزعومة للاقتصاد السياسي** (٢٢٤)] . [**ينجم عن مناقشات « جمعية الريفيين » تلك ان ثمة اجماعا بين الكل على الهدف المطلوب ادراكه : تدمير الملكيـــة الجماعية ، والنقاش لا يدور الا حول وسائـــل الخلاص منها .** النائب كلابييه ، على سبيل المثال ، يريـد ان يصل الى ذلك عن طريق تطبيق بنود قرار مجلس الشيوخ لعام ١٨٦٣ ، تلك البنود التي تنص على ان الملكية الخاصة لا يجوز ادخالها الا الى الاقضية التي انفصلت فيها قطع الاراضي من الاساس عن ملك القبيلة . اما لجنة « الريفيين » ، التي رئيسها ومقررها وارنييه ، فتصر على العكس على البدء بهذه العملية من نهايتها ، اي بتحديد النصيب الفردي لكل عضو من أعضاء المشاعة ، وفي القبائل السبعمائة في آن معا] .

اما المحسنات الجمالية التي يريد السيد وارنييه أن يموه بها تدبيرا غرضه نزع ملكية العرب ، فهي بوجه الخصوص التالية :

١ ـ لقد اعرب العرب انفسهم في اكثر من مرة عن الرغبة في تقسيم اراضيهم المشاعية . والحال ان هذا كذب وقح . والنائب كلابييه هو الذي رد عليه (جلسة ٣٠ حزيران ١٨٧٣) : « ولكن

---

(١٩) هي جمعية الفرساويين الممثلة للنزعة المحافظة الريفية في مواجهة عاميـــة باريس . وقد اراد ماركس من وراء هذه الاشارة الربط بين النشاط المناوىء للحركة العمالية وبين النشاط الكولونيالي . «م»

هل العرب هم الذين يريدون تكوين تلك الملكية الخاصة الذي تسعون اليه ؟ هل اتانا احد بالرغبات التي اعربت عنها القبائل ومجالس يوم الجمعة ؟ كلا ، انهم راضون عن وضعهم ، عن تشريعهم ، وعاداتهم تكفيهم . ان المضاربين والمقرضين هم الذين يطالبونكم بمشروع القانون » (٢٢٤ ، ٢٢٥) .

٢ ـ الزعم بان نظام التصرف الحر لكل عربي بالارض التي تعود اليه ملكيتها قانونا سيتيح له عند الاقتضاء امكانية الحصول على الرأسمال الذي يعوزه عن طريق نقل الملكية او رهنها : افليس ذلك مما يرتجى لصالح الجزائريين بالذات ؟ لكأننا لا نلاقي، في جميع البلدان ذات نظام الانتاج غير الرأسمالي ، ابشع استغلال للسكان الريفيين من قبل مرابين صغار وملاك اراضي مجاورين تتوفر لديهم رساميل شاغرة ؟ **انظر الهند ، انظر روسيا** حيث يقترض الفلاح من «الكولاك» (٢٠) بفائدة تبلغ ٢٠ ، ٣٠ ، وفي كثير من الاحيان ١٠٠٪ من المبلغ الذي هو بحاجة اليه ليدفع ضريبة الدولة . ثم ان مالك الاراضي الكبير يغتنم فرصة الظروف التي ترهق كاهل الفلاح ليربطه بالعقد اثناء الشتاء عن كل فترة العلف والحصاد ، مقابل ثلث او نصف الاجر المعتاد الذي يدفعه اليه سلفا ، علما بأن المال يذهب ليملأ من جديد صناديق **الدولة الروسية** التي لا قاع لها . ان الحكومة الانكليزية تعمل ، في الاقاليم الشمالية الغربية من الهند وفي **البنجاب** ، عن طريق « النقل » و « الرهن » ـ بمصادقة القانون ـ على حل **الملكية الجماعية** الفلاحية ، **على تجريد الفلاحين في نهاية المطاف من املاكهم ، على تحويل الارض المشاعية الى ملكية خاصة للمرابين (٢٢٥ ـ رسالة بادنغه الى ماك ـ ماهون عام ١٨٦٥ تشهد على نشاط مماثل لمراب**

(٢٠) الكولاك : الفلاح الروسي الموسر . «م»

من مدينة الجزائر يستغل عبء ضرائب الدولة كاداة للانتقال الى الهجوم (انظر ص ٢٢٥ ، ٢٢٦) (رسالة اوردها كلابييه في خطابه في جلسة « الجمعية » في ٣٠ حزيران ١٨٧٣) .

لقد كان من المتعذر على كل حال، في ظل الحكومة الاسلامية، **نزع ملكية الفلاح من قبل المرابين المحتكرين** . بل لم تكن تلك الحكومة تعترف برهن الارض (الرهن العقاري) ، لانها كانت تعتبر الملكية القروية (طبقا للملكية العائلية المشتركة) غير قابلة للقسمة وللتصرف (انظر هامش ٢ ، ص ٢٢٦) . [بيد انها كانت تقر بـ « الرهن » (٢١) الذي يعطي مقرض المال حقا تفضيليا على سائر الدائنين ، وكان مقرض المال بالتالي يضمن التسديد له قبل هؤلاء الاخيرين من مداخيل ثروة المدين المنقولة والثابتة : **وهذا ما كان يفتح مجال عمل ما للربا ، كما هي الحال في روسيا ، الخ**] (٢٢٦) . وقد اعترف قرار مجلس الشيوخ لعام ١٨٦٣ ، المادة ٦ ، باديء ذي بدء بحق التصرف الحر ، سواء أبالنسبة الى الملكية العقارية التي بحوزة اشخاص افراد – اي بالنسبة الى اراضي « الملك » (٢٢) – أم بالنسبة الى اقسام من القبيلة فيما يتعلق بالارض التي منحت اياها ، وقد اباح بذلك بيع ورهن الاملاك القبلية ، الشيء الذي استفاد منه للحال المرابون والمضاربون . **وقد حقق حقل « نشاطاتهم » مزيدا من الاتساع ايضا بفضل قانون « جمعية الريفيين » لعام ١٨٧٣** الذي اقر اخيرا بالملكية الخاصة للارض . فكل عربي يسعه الآن التصرف بحرية بارض التي ملكت له ، وسوف تكون النتيجة : نزع ملكية السكان الاصليين من قبل

---

(٢١) باللفظ العربي في النص ، وهو هنا غير الرهن العقاري ، وبالتالي لا يجيز عرض الملك المرهون للبيع . «م»

(٢٢) باللفظ العربي في النص . «م»

المعمرين والمضاربين الاوروبيين . لكن ذلك بالضبط كان الهدف الواعي لـ « قانون » ١٨٧٣ (٢٢٦ ، ٢٢٧) .

٣ ــ ان ادخال الملكية الخاصة للارض لدى سكان غير مهيئين لها ولا تثير لديهم الا مشاعر النفور يجب ان يكون هــو الدواء الناجع المؤكد النجاح لتحسين شغل الارض، وبالتالي لرفع انتاجية الزراعة (٢٢٧) . **تلك كانت الصيحة العامة** للاقتصــاد السياسي **لاوروبا الغربية** ، ولكن كذلك لـ « الطبقات المثقفة » المزعومة في اوروبا الشرقية ! غير انه لم يأت ذكر ، اثناء مناقشات جمعيــة الريفيين ، لاي واقعة من وقائع تاريخ الاستيطان . فوارنييــه يستشهد بتحسن وسائل زراعة اراضي المعمريــن الاوروبيــين ، الصغيرة المساحة ، لكن التي تحتل موقعا حسنا من زاوية تصريف الانتاج . ورقم جميع الاراضي العائدة الى المعمرين الاوروبيين في الجزائر يعادل ٤٠٠٠٠٠ هكتار (٢٣) ، منــهـا ١٢٠٠٠٠ تخص شركتين ، شركة مدينة الجزائر وشركة سطيف (٢٤) . وهــذه الاملاك الواسعة ، الواقعة بعيدا عن الاسواق كما يقر بذلك وارنييه نفسه ، كان يشتغلها مزارعون عرب بأساليبهم القديمة والتقليدية التي كانت موجودة قبل قدوم الفرنسيين « حاملي الانوار » . اما الـ **١٨٠٠٠٠ هكتار** الباقية فكانت مفتتة على نحو شديد التفاوت

---

(٢٣) الرقم الذي يذكره كوفاليفسكي وماركس هو دون الواقع ، اذ كان المعمرون الاوروبيون يملكون في عام ١٨٧٠ ضعف المساحة المذكــورة ، وبالضبــط ٧٦٥٠٠٠ هكتار . «م»

(٢٤) هما في ارجح الظن الشركة الجزائرية العامة التي وضعت يدها على١٠٠٠٠٠ هكتار في محافظة قسطنطينة ، والشركة الجينيفية التي كانت تملك ٢٠٠٠٠ هكتار في منطقة سطيف . «م»

بين ۱۲۲۰۰۰ اوروبي ، منهم ۳۵۰۰۰ موظف وساكن مدينة لا يهتمون بالزراعة . **يبقى اذن ۸۷۰۰۰ معمر فرنسي زراع .** ولكن لا وجود حتى لديهم لزراعة كثيفة ، لان مثل هذه الزراعة لا تدر ربحا حيثما تكون مساحة الارض غير المزروعة كبيرة وعدد السكان ضئيلا نسبيا (۲۸۸) (انظر مناقشة ۳۰ حزيران ۱۸۷۳) . وكان نزع ملكية العرب بقوة القانون يرمي الى هدفين اثنين : ١ ـ تزويد المعمرين الفرنسيين بالحد الاقصى من الارض ، ۲ ـ تحطيم ما تبقى من قوة الروابط القبلية الآخذة اصلا بالتفكك ، عن طريق سلخ العرب عن روابطهم الطبيعية بالارض ، وبالتالي ابعاد خطر كل تمرد (۲۲۹) . يبين وارنييه ان الاراضي الموضوعة تحت تصرف المعمرين لا تكفي لتلبية حاجات اولئك الذين يتدفقون سنويا من فرنسا . ففي محافظة مدينة الجزائر يعود الى كل معمر اوروبي ۱ هكتار ۳ ، وفي محافظة وهران ۲ هكتار ٦٤ ، وفي محافظة قسطنطينة فقط ۳ هكتارات ۲٥ (۲۲۹) . كان من المستحيل اذن مضاعفة عدد المعمرين في حال الابقاء على التنظيم العربي للملكية العقارية (الموضع نفسه) . وبغية تسريع عملية انتقال الاراضي القبلية القديمة الى ايدي المعمرين ، نص القانون (۱۸۷۳) ، ان لم يكن على الالغاء الكامل لحق الشراء القبلي (الشفعة) (۲٥) [كان حق « الشفعة » (۲٥) يخول كل عضو في « الفرقة » (۲٥) (جزء من القبيلة) حق شراء ارض باعها هذا العضو او ذاك من اعضاء الفرقة (انظر خطاب النائب همبر ، جلسة ۳۰ حزيران ۱۸٤۳ ، « حوليات الجمعية الوطنية » ، المجلد ۱۸ ؛ ص ۳۳٦) ، وهو حق مماثل بدقة لذاك الذي ما يزال ساري المفعول الى اليوم في بعض

---

(۲٥) باللفظ العربي في النص . «م»

انحاء كانتون غريزون] (٢٦) ، فعلى حده على الاقل بدرجات القرابة التي يعترف لها القانون الفرنسي بحق الشفعة . واخيرا ، وبغية توسيع اراضي الحكومة ، اعلن قانون ١٨٧٣ الاراضي البور أملاكا حكومية ، تاركا استعمالها المشاعي للقبائل العربية ، لكن بدون تقسيمها بين مناطقها . **لصوصية سافرة خالصة ! ولهذا السبب تحديدا اقرت جمعية الريفيين ، العظيمة الحدب اصلا على « الملكية » الكلية القداسة ، مشروع القانون ذاك الذي ينتهك الملكية القبلية بلا ادنى تعديل ، وقررت ان تجعله ساري المفعول في ابان عام ١٨٧٣ نفسه** (المداولة الثالثة في جلسة ٢٦ تموز ١٨٧٣ ؛ « حوليات الجمعية الوطنية » ، م ١٩ ، ص ٢٣٠) . وقد لاحظ الجنرال نييل بحق اثناء مناقشات الجمعية الوطنية عام ١٨٧٩ : « المجتمع الجزائري قائم على الدم [**اي على القرابة**] » . **وعليه ، وعن طريق تحويل الملكية العقارية الى ملكية فردية ، يتم بالضربة نفسها بلوغ الهدف السياسي : تدمير اسس ذلك المجتمع بالذات (٢٣١)** .

---

(٢٦) عرف دارج جدا في اوروبا الغربية في العصر الوسيط ، يعرف باسم «استرداد حق الانساب » . «م»

رسائل الجزائر[1]

كارل ماركس

(١)

بطاقة بريدية الى انجلز

٢١ شباط ١٨٨٢
فندق الشرق ، الجزائر

العزيز فريد
غادرت مرسيليا يوم السبت ١٨ شباط الساعة ٥ من بعد

---

(١) في السنة قبل الاخيرة من حياته امضى ماركس فترة شهرين ونصف شهر ، من ٢٠ شباط الى ٢ ايار ١٨٨٢ ، في الجزائر . وكان سبب اقامته المرض، وبأمر من اطبائه الذين طلبوا لرئتيه الدفء على الشاطىء الافريقي مـن =

الظهر على ظهر « سعيد » ، وهي سفينة بخارية ممتازة . وقـد

= البحر الابيض المتوسط . وقد وصلنا من رسائله التي كتبها من الجزائر ١٦ رسالة ، ٩ منها الى فريدريك انجلز الذي يخاطبه بالشطر الاول من اسمه : « فريد » . والحديث عن المرض يشغل الحيز الاكبر من تلـك الرسائل ، ويليه الحديث عن الطقس ، او بالاحرى عن سوء الطقس ، اذ خلافا لما توقع الاطباء وانجلز نفسه كان الطقس في الجزائر في تلـك الفترة باردا ورطبا . وكانت حالة ماركس الصحية تحول بينه وبين العمل الفكري ، فكان يكتفي بمطالعة صحيفة فرنسية محلية اسمها « المعمـر الصغير » (Le Petit Colon) ويتابع من خلال الرسائل القليلة التي تصله الوضع السياسي في اوروبا وجهود الحركة العمالية . وكانت انباء الجزائر بالذات تصل اليه مخففة الوقع . ومن قبيل ذلك انه لم يسمع ، على ما يبدو بثورة ابو امانة في منطقة وهران التي بلغت اوجها في صيف ١٨٨١ وامتدت في الزمن حتى ايار ١٨٨٣ . وكانت المعلومات الوحيدة التي يتلقاها هي تلك التي تأتيه من فم دليله القاضي فرميه Fermé الذي تعـرف اليه بوساطة صهره شارل لونغيه . وكان هذا القاضي (راجع سيرة حياته في الهامش رقم ٤٦) بحق رائدا من رواد الاشتراكية الكولونيالية . فقد كان ينقل الى ماركس مستنكرا بعض الاساليب التي تلجأ اليها « العدالة » الفرنسية في معاملة الاهالي ، ولكنه كان يبحث لنفسه في الوقت ذاته عن مكان تحت شمس الاستعمار .

ان تردي صحة ماركس قد حد كثيرا من تجواله في مدينة الجزائر اثناء اقامته فيها . ونزهاته اقتصرت على شوارع معدودة منها . وكان قبيل وفاة زوجته جيني قد اصيب بذات الجنب ، وبالتهاب القصيبات الرئوية ، وببداية ذات رئة . ويوم ماتت زوجته قال انجلز : « لقد مات المغربي هو الآخر » . وكان « المغربي » اللقب الذي يطلقه انجلز توددا على ماركس . =

كانت الرحلة سريعة حتى أننا وصلنا مدينة الجزائر الاثنين (٢٠

= وقد ادرك ماركس بنفسه سوء حالته ، فكتب الى سورجه في ١٥ كانون الاول ١٨٨١ :

« لقد قضى علي مرضي الاخير بعجز مزدوج : معنويا بسبب وفــــاة زوجتي ، وجسمانيا لانه نجم عنه تخثر في غشاء الجنب وقابلية اكبـــر لالتهاب القصيبات . وسيتوجب علي من الآن فصاعدا ان اضيع جزءا كاملا من وقتي في حركات لا غرض لها سوى استعادة صحتي » .

وقد ارسله أطباؤه في البداية الى وايت ، وهي جزيرة انكليزية في بحر المانش ، ثم دفعوا به الى الجزائر طلبا لدفء المناخ المتوسطي . وقـــد حاول الاعتراض ، لكن بلا جدوى . كتب على سبيل المثال الى ابنته جيني لونغيه يقول :

« اما انا فكانت تخامرني بعض شكوك : فقد كانت تجربة جزيرة وايت واماكن اخرى تكفيني ، لكن انجلز ودونكان (طبيب ماركس وصديقه . «م») تحمسا كلاهما لافريقيا ، من دون ان يقوم أي منهما بالاستعلام كما ينبغي .. وقد ألمحت اكثر من مرة من طرف خفي الى انه قد يحسن بي ان ابدأ بمانتون او نيس لان لافروف (شعبوي روسي ، منفي في لندن ، وكان على صلة بماركس وانجلز . «م») تلقى من هناك انباء مشجعة للغاية من اصدقاء روس ، لكن العزيز فريد (انجلز) بمزاجه الدموي ضرب بكل ازدراء صفحا عن تلك المعلومات ، وانني لاقولها بيني وبينك : انه من اولئك الناس الذين قد يقتلونك بحبهم » .

وكان طقس رديء للغاية بانتظار ماركس في الجزائر ، فساءت صحتـه بدل أن تتحسن . وقد نزل بادىء الامر في « اوتيل دوريان » (فنـدق الشرق) في قلب المدينة الكولونيالية الجديدة ، ثم في « اوتيل ـ بانسيون فكتوريا » وهو من الفنادق التي كان يؤمها المتنجعون الانكليز الذين كان =

شباط) في الساعة ٣½ صباحا . لكن الطقس كان باردا اثنــاء العبور ، وبالرغم من ان المركب كان مجهزا بكل وسائل الراحة ، فانني لم انم طوال الليلتين بسبب الضجة الجهنمية للآلات والريح ... الخ ، التي حالت بيني وبين التماس الهدوء في قمرتي .

لقد كان ينتظرني هنا « المقلب » (٢) ذاته الذي انتظرني في جزيرة وايت ! وبالفعل ، كان الفصل هنا هذه السنة باردا ورطبا بصورة غير مألوفة ، مما يجعل نيس ومانتون (٣) تنتزعان في الوقت الحاضر من الجزائر نصف سياحهــا . على كل حال ، كانــت تساورني بعض الهواجس المنذرة بالسوء ، وقد سبق ان ألمحت من طرف خفي في اكثر من مرة الى ان ابدأ اولا بالكوت دازور . لكن يبدو ان الامر قدر مقدر ! لقد استقبلني القاضي الخـدوم البارحة استقبالا في منتهى الود ، وكانت رسالة لونغيه قد هيأته لذلك قبل يوم من وصولي . وسوف يأتي لمشاهدتي اليوم كيما نناقش التدابير التالية . سأزودك بمزيد من التفاصيل لاحقا . تحياتي الى الجميع . لا يوجد هنا بريد يومي الى فرنسا وانكلترا. اكتب لي على اسمي و : بواسطة السيد فرميه ، القاضي في المحكمة المدنية ، رقم ٣٧ . طريق مصطفى الاعلى (مدينة الجزائر) .

= يأتي منهم الى الجزائر سنويا ١٥٠٠ شخص .

وقد غادر ماركس الجزائر في ٢ ايار ١٨٨٢ الى مونتي كارلو . وبعــد عشرة اشهر قضى نحبه من دون ان تفلح فترة الانتجــاع في الجزائر في انقاذه . «م»

(٢) يلجأ ماركس احيانا في رسائله ، علاوة على اللغة الالمانية ، الى اللاتينية والانكليزية والفرنسية وحتى اليديشية . وحتى لا نثقل النص بالهوامش الكثيرة ، امتنعنا عن التنبيه الى اللغة التي كتبت بها بعض العبارات او المفردات عرضا . «م»

(٣) بلدة فرنسية قرب نيس على شاطىء الكوت دازور . «م»

(٢)

بطاقة بريدية
الى جيني لونغيه (ارجنتاي)

٢٣ شباط ٨٢

طفلتي العزيزة
لقد تحسن الطقس . اسكن في فيلا مريحة ، على التلال قرب تحصينات مدينة الجزائر . الشيء الوحيد الذي انا بحاجـــة اليه هو الراحة . آمل ان اعود عما قريب رجلا « افضل » .
قبلي الاطفال كلهم ، وتحياتي للونغيه .

المخلص لك (٤)
OLD NICK

(٣)

رسالة الى انجلز

١ آذار ١٨٨٢

اوتيـــل ــ بانسيون فكتوريا ،
مصطفى الاعلى ، بولفار بـــون
اكوي ، الجزائر . (بوسعك من
الآن فصاعدا ان تكتب لي مباشرة
على العنوان اعلاه) .

العزيز فريد
بعثت اليك ببرقية استباقا لبطاقتي البريدية التي خشيت

---

(٤) نك العجوز : هكذا كان ماركس يوقع رسائله الى ابنته . «م»

ان تسبب قلقا لا طائل فيه . والواقع انه بفضل تضافر جملة من الظروف الصغيرة غير المؤاتية (بما فيها العبور) حط « جسم الجريمة » (٥) الذي هو جسمي في الجزائر يوم ٢٠ شباط ، متجمدا حتى نخاع العظم .

لقد كان شهر كانون الاول مريعا في مدينة الجزائر ، وفي كانون الثاني صحا الطقس ، وفي شباط صار باردا ، ورطبا ايضا ، وصادف مجيئي أبرد ثلاثة ايام من هذا الشهر : الـ ٢٠، و٢١، و٢٢ شباط . أرق ، فقدان للشهية ، سعال شديد ، ومعاناة من سويداء عميقة ، لها سوراتها العنيفة من حين الى آخر ، على منوال دون كيشوت الكبير (٦) . أأرجع الى اوروبا للحال من دون أن أكون قد فعلت شيئا ، مع ما يترتب على ذلك من نفقات صغيرة غير متوقعة ، علاوة على ليلتين جديدتين في واحدة من تلك القمرات، ودماغي يسحقه ضجيج الآلات الصاخب ! ام اقطع ، من الجهة الثانية ، كل شك فأنجو من المقلب (٧) بالسفر حالا الى بسكره الواقعة عند تخوم الصحراء ؟ لكن بالنظر الى وسائل المواصلات والنقل ، فان هذه السفرة الجديدة ستستغرق من ٧ الى ٨ ايام ، وستكون مضنية ، وفي رأي الناس الذين يعرفون شروط السفر ، لن تخلو من محاذير بالنسبة الى عاجز « مؤقت » في حال وقوع حوادث قبل الوصول الى بسكره !

---

(٥) تعبير ساخر مقتبس من لغة القضاء الشرعي . «م»

(٦) معلوم ان بطل سرفانتس كان يعاني من نوبات سويداء (مالنخوليا) حادة. «م»

(٧) المقلب : هو ما سبقت الاشارة اليه من تفاجؤ ماركس بطقس الجزائر العاصف في الوقت الذي صور له فيه الاطباء والاصدقاء انه سيحظى هناك بالدفء المتوسطي ! «م»

ونظرا الى ان ميزان الحرارة اشار الىتحسن في الطقس عصر يوم ٢٢ شباط ، والى انني كنت استدللت : بصحبة القاضي الطيب فرميه ، الى موضع اوتيل - بانسيون فكتوريا ، فقد غادرت غران اوتيل دوريان (حيث يرقد ايضا الفيلسوف الراديكالي الكريه استون ديلك (٨) ، وطبقا لما تقوله « لو بتي كولون » (٩) وصحف جزائرية صغيرة اخرى ، فان كل انكليزي هنا هو لورد ، وحتى برادلو تصبح هنا اللورد برادلو) مع امتعتي الى احد التلال الواقعة خارج التحصينات من جانب شرق المدينة . الموقع هنا رائع ، وامام غرفتي يسد البحر الابيض المتوسط الافق ، وميناء الجزائر ، وفيلات مصفوفة على شكل مدرج يتسلق التلال (مسايل ضيقة تحت التلال ، ومن فوقها تلال اخرى) ؛ والى بعيد جبال ترى بالعين وبخاصة القمم المثلجة خلف ماتيفو في جبال القبائليين ، وذرى جرجورة الشاهقة (جميع هذه الجبال كلسية). وليس امتع من المشهد صباحا ، في الساعة ٨ . الهواء ، النبات ، مزيج اوروبي - افريقي . وفي العاشرة من صباح كل يوم او بين الـ ٩ والـ ١١ ؛ امضي في نزهتي ، بين المسايل الضيقة والتلال الواقعة فوق تلي .

ومع هذا كله ، فان المرء لا يعيش بالتراب وحده . فبادىء

---

(٨) كاتب انكليزي . «م»

(٩) المعمر الصغير : صحيفة فرنسية كانت تصدر حينئذ في الجزائر ، وكان اسمها بالذات يعبر عن اتجاه صحافة المجتمع الكولونيالي اليسارية . فهي تعارض « كبار » المعمرين بـ « صغارهم » وتتحدث عن صراع طبقي بينهم ، من دون ان تتوقف عند الصراع الفعلي ، الصراع بين المعمرين وبين اهالي المستعمرة . «م»

ذي بدء ، ومن ٢٣ الى ٢٦ شباط حدث تغير ممتاز حقا ، ولكن الآن (ومع انني ما ازال متجمدا الى حد ان لباسي لم يتغير حتى هنا في الجزائر عما كانه في جزيرة وايت سوى انني استبدلت في داخل الفيلا معطفي المصنوع من جلد وحيد القرن بمعطفي الخفيف، وفيما عدا ذلك لم يتغير شيء حتى الساعة) (١٠) بدأ ما يسمى بالعاصفة ، اي زمجرة الريح بدون رعد ولا برق (وهذه فترة خطرة وغدارة يخشاها حتى الاهالي . اذن ،وحتى الآن ، ثلاثة ايام جيدة فقط في الواقع .

في ظروف كهذه راح سعالي يتفاقم من يوم الى يوم ، والبصاق الكريه ، وقلة النوم ، وعلى الاخص الشعور المزعج بأن جنبي الايسر قد افترسه الداء بصورة نهائية ، وفكريا أحس باني في غاية الانحطاط . وعليه ، فقد أستدعيت د. اسطفان (افضل طبيب في مدينة الجزائر) . رآني مرتين بالامس ، واليوم ! ما العمل ؟ انا على وشك النزول الى الجزائر لانفذ وصفته . والمطلوب ، بعد التسمع الدقيق الى صدري: ١ ــ كولوديون من مسحوق الذراريح على ان يدهن بواسطة ريشة ، ٢ ــ زرنيخات القلى ، مضافا اليها مقدار معين من الماء ، وملعقة طعام من هذا الشراب مع كل وجبة ، ٣ ــ عند الاقتضاء ، وبخاصة في الليل عند نوبات السعال ، ملعقة طعام من مزيج من قلى الافيون والجلاب الصمغي. وسيعود لرؤيتي خلال ٨ ايام ، وقد اوصاني بالاعتدال الشديد في تماريني البدنية،

---

(١٠) يرتكب ماركس في رسائل الجزائر ، وعلى الارجح بسبب مرضه ، كثيرا من الاخطاء الاملائية . علاوة على التقطع في التراكيب وتسلسل النص ، كما ان خطه في العديد من المواضع لا يقرأ . وهذا كله يؤثر بالطبع على الترجمة العربية التي لا خيار لها الا ان تكون اقرب الى الحرفية . «م»

ومنع علي اي نشاط فكري حقيقي ، خلا القراءات المسلية . وعليه، لن ارجع في الحقيقة الى لندن ابكر من المتوقع (وبالاحرى سأتأخر اكثر) ! ومع ذلك لا يجوز للمرء ان يعلل نفسه بالاوهام وان يرى الى الاشياء بتفاؤل زائد عن اللزوم !

يجب ان اوقـــف رسالتي ، لانني مضطر للذهـــاب الى الصيدلية في الجزائر .

بالمناسبة ، انت تعلم ان ليس من الناس من ينفر مثلي من التظاهرات العاطفية ، غير انني اكون كاذبا لو لم اعترف بأن فكري مشغول بذكرى زوجتي : لقد كانت جزءا من الجزء الافضل من حياتي ! قل لابنتيَّ (١١) فيلندن أن تكتبا لعجوزهما نك والا تنتظرا ان يكون البادىء .

الى اين وصلت بامبس (١٢) في عملها الخطير لخلق الرجل ؟ المغها خالص تهاني .

انقل تحياتي الى هيلين ، وكذلك الى مور وشورليمر (١٣) .

الى اللقاء يا صديقي العجوز

مغربيك

بالمناسبة ! د. اسطفان ، كعزيزي د. دونكان ، لا ينسى الكونياك !

---

(١١) اليانون ماركس ولورا لافارغ . «م»

(١٢) لقب ماري ــ هيلين روشر ، ابنة اخت ليزي بورنز ، رفيقة انجلز (المتوفاة عام ١٨٧٨) . وستنجب م. هـ. روشر لا صبيا (خلق الرجل) بل بنتا : ليليان . «م»

(١٣) يرسل ماركس تحياته الى هيلين ديموث ، المقيمة لدى انجلز، والى صديقي انجلز الحميمين والمناضلين الاشتراكيين : سام مور وكارل شورليمر ، المقيمين في مانشستر . «م»

(٤)

بطاقة بريدية الى انجلز

٣ آذار ١٨٨٢

العزيز فريد

تلقيت بالامس رسالتك المؤرخة في ٢٥ شباط ، وكذلك قصاصات الديلي نيو .

(أ. ن. (١٤) سر دولة وقلب مضحك ـ مبك) . آمل ان تقلع توسي (١٥) عن المجازفة باستخفاف بصحتها في مثل تلك الشواغل ، وآمل ان تكون كاكادو ، المعروفة (١٦) بكلارا الصغيرة، كما كانت على الدوام متألقة ، لانها تفرض على نفسها مجهودات جسمانية كثيرة . من باريس لم يصل بعد اي رد .

العاصفة ـ هذا هو هنا التعبير الكلي القداسة ـ تدوم منذ ٢٦ شباط وان في اشكال شديدة التنوع على الدوام .

الثاني من آذار كان ، بالنسبة الي كما الى سائر نزلاء الدار ، يوم توقف اجباري طوال النهار .

امطار غزيرة منذ الصباح الباكر من سماء بلون لندني رمادي على رمادي ، لكن هذه المرة وللمرة الاولى ترافقت الزخات ببعض الرعود وبعض البروق . في الساعة ٤ من بعد الظهر عادت السماء من جديد لازوردية . اما المساء فكان رائعا ومقمرا . طوال اليوم ،

---

(١٤) اولغا الكسييفا نوفيكوفا : كاتبة روسية من دعاة الوطنية السلافية . «م»

(١٥) توسي : لقب التدليل لاليانور ماركس . «م»

(١٦) كاكادو : اسم التدليل لكلارا ماركس ، زوجة بول لافارغ . «م»

صعود وهبوط في الحرارة على فترات فاصلة وجيزة . في اثناء ذلك ، عدت ، فيما عدت اليه من علاج ، الى الوشم . وبدءا من الليلة التالية طرأ تحسن ملحوظ .

في هذا الصباح ، ٣ آذار ، كان الوشم شاغلي الاول . لم افزع رغم الريح ، ووجدت النزهة من الساعة ٩ الى حوالي ١١و¼ ممتعة للغاية في هواء البحر البلسمي ، وقد عدت قبل ان تنتاب الريح سورة غضب جديدة . في غضون خمس دقائق سيستدعونني الى طعام الغداء ، وانا انتهز السانحة كي ابعث اليك بهذه السطور القلائل .

مغربيك

(٥)

رسالة الى ابنته جيني لونغيه

١٦ آذار ١٨٨٢

اوتيل فكتوريا

اكتبي كما في السابق هنا بواسطة

آل فرميه .

طفلتي العزيزة

بعد ان تلقيت رسالتك بوساطة فرميه ، بعثت بأحدهم الى اوتيل دوريان ليسأل عما اذا لم يكن لي ، هناك ايضا ، بريد ، فسلموه رسالتك المؤرخة في ٢٤ شباط .

سأتلو عليك الآن تقريرا مقتضبا حول وضعي الصحي .

نظرا الى ان سعالي راح يتفاقم ، مصحوبا بنوبات حادة وبالارق ؛ فقد استدعيت د. اسطفان (الذي يعالج ايضا بعض الاشخاص المقيمين معي هنا) ، وعليه انا اتلقى العلاج على يديه منذ ٢٦ شباط ، وهو اليوم الاول الذي فحصني فيه . انه رجل قوي العزيمة ، حازم الرأي . وقد وجد ان جنبي الايمن (من الرئتين) ، الموهن بذات الجنب بفعل ظروف غير مؤاتية تراكمت منذ رحيلي من باريس ، لا يعمل بصورة سوية . والعلاج الرئيسي لذلك هو المنفطات (امتصاص السائل عن طريق دهن الجنب الايسر والصدر والظهر بالكولوديون الذراحي) ، وهو دواء له علي مفعول حسن ، ثم دواء آخر « مسكّن » ضد السعال ، واخيرا الزرنيخات (وهي كالماء بلا طعم) بعد كل وجبة . واذا اذن الطقس بذلك ، فعلي ان اعود الى نزهاتي الصباحية غير الطويلة .

من سوء الحظ (لو تحسن الطقس لتوقفت نوبات السعال الحادة من تلقاء نفسها) انني بدأت ابصق دما منذ ٦ آذار ، وفي ٨ و٩ أصبت بنزيف خطر ، تبعه الم خفيف دام حتى ١٢ ، ومنذ ١٣ لم يعد هناك من اثر لذلك النزيف . اسبوع اذن من ذلك الفصل المزعج . وقد تدخل د. اسطفان بحزم ، فمنع علي كل حركة (بما في ذلك النزهة بالطبع) ؛ وكذلك كل كلام تقريبا ، وتحميم القدمين ، الخ ، علاوة على عقاقير قوية . وفي اثناء ذلك تابعت معالجتي بالمنفطات والمقويات ضد السعال ، وبالفعل خف السعال كثيرا . وقد بدأ الطقس هو الآخر يتحول شيئا فشيئا ، بالرغم من انه لم يتحسن بعد كما ينبغي تماما .

في الفيلا التي انا فيها على التل (اوتيل فكتوريا) يمتد امامي الخليج ، والى جانبي فيلات مصفوفة على شكل مدرج ، والهواء عليل ، حتى بدون تنزه ، سواء في الرواق المحاذي لغرفتي والغرف الملاصقة ، وأم في الشرفة التي تفضي الى الطابق الاول . لن يأذن لي الدكتور باستئناف نزهاتي الا بعد ان يفحص مرة اخرى «جسم

الجريمة » . والشيء الجدير بالذكر ان ليست الشهية هي وحدها التي عادت في الآونة الاخيرة ، بل النوم كذلك . (وفي الواقـع ، ومنذ تلك الليلة في الفندق في باريس في ١٦ شباط ، لم ينقطع حبل الارق الى اللحظة التي اشرت اليها) ، وكما كتبت الى لندن ايضا ، هأنذا من جديد بعد هذه الرحلة المجنونة التي اسيء حسابها في الحالة التي كنت عليها عند مغادرتي متلاند بارك . بيد انه ينبغي علي ان اقول ان الكثيرين من السياح اجتازوا ويجتازون هنـا الامتحان المزعج نفسه . فمنذ عشرة اعوام لم تشهد مدينة الجزائر شتاء ممطرا كهذا . اما انا ، فكانت تخامرني بعض شكوك ، فقد كانت تجربة جزيرة وايت وامـاكن اخرى تكفيني ، لكن انجلز ودونكان تحمسا كلاهما لافريقيا ، من دون ان يقوم اي منهمـا بالاستعلام كما ينبغي ، على الرغم من ان هذا العام كان خارقـا للمألوف من زاوية معدلات الحرارة . وقد ألمحت اكثر من مرة من طرف خفي الى انه قد يحسن بي ان أبدأ بمانتون أو نيس لان لافروف تلقى من هناك انباء مشجعة للغاية من اصدقاء روس ، لكن العزيز فريد بمزاجه الدموي ضرب بكل ازدراء صفحا عن تلك المعلومات ، وانني لاقولها بيني وبينك : انه من اولئك الناس الذين قد يقتلونك بحبهم .

دعيني اقل لك ان السيدتين ، المالكتين ، هنا في هذه الفيلا ـ الاوتيل ، تتفانيان من اجلي ، ولا تدخران عناية او جهدا . وفيما يتعلق بدهن المنفطات ، فثمة صيدلي شاب ، السيد كاستلاز (انه موجود هنا بصفته مريضا ، منذ كانون الاول ، مـع امه) لطيف بما فيه الكفاية ليتولى وشمي وليفقأ الفقاعات المليئة بالماء وليضع ضمادا على اللحم الحي ، الخ . وهو يفعل ذلك كله بلطف زائد ، ويعرض علي خدماته برقة مفرطة .

لا امتع هنا من مدينة الجزائر ، ولا على الاخص من الريف

المجاور لهذه المدينة في الصيف وقبـــله . ولقد كان سيخالجني شعور بأنني في ألف ليلة وليلة ــ اذا ما تصورت نفسي في صحــة جيدة لو كان حولي جميع اولئك الذين احبهم (بدون ان انسى بوجه خاص الاحفاد) (١٧) . لقد كنت اغتبط اغتباطا شديدا في كل مرة تصلني فيها منك اخبار الصغار الاعزاء ، وقد كتبت لي توسي هي الاخرى انها لا تتوصل الى الامتناع عن التفكير بالاولاد وانهــا تتمنى ان تراهم من جديد حولها . سيكون من الصعب علي ان أرحل من هنا قبل اربعة اسابيع لانه يتوجب علي اولا ان اتابع الى النهاية وبالتمام العلاج الذي وصفه د. اسطفان، وبعد ذلك فحسب يمكنني ان اشرع بالتعالج بالهواء بحصر المعنى (وهذا على فرض ان الطقس سيكون موائما) .

لم اقرأ شيئا من الـ Justice (المناظرة مع الـ Citoyen)، وانا لا اطالع كذلك ، باستثناء الـ Egalité ، صحيفة واحدة من باريس (١٨) . وقد سررت جدا اذ علمت من رسالتك ان توسي

---

(١٧) الاحفاد : هم اولاد جيني لونغيه : جان وهنري وادغار ومرسيل . «م»

(١٨) كان ماركس اذن يحرص على ان يتتبع من خلال مناقشات الصحافةاليسارية في فرنسا انباء تطور تنظيم الحركة العمالية . والمناظرة الصحفية المشار اليها هي تلك التي دارت في شباط ١٨٨٢ بين صحيفة « العدالة » الناطقة بلسان كليمنصو والحزب الراديكالي (وكان صهر ماركس ، شارل لونغيه ، يساهم في تحريرها) وبين « المواطن » ، وهي صحيفة يومية كانت تنطق ، مع « المساواة » الاسبوعية ، بلسان حزب العمال الفرنسي وانصار جــول غيد . وكان صهر ماركس الآخر ، بــول لافارغ ، يشـــارك في التحرير في الصحيفتين الاخيرتين . وقد دارت المناقشة بصدد حركة اضراب في مصانع النسيج في روان . وقد طالبت صحيفة « المساواة » الراديكالية ، من دون=

وجدت حلا كله حصافة ورهافة للكارثة (١٩) .

اذا شن ليساغاري « معركته » (٢٠) فابعثي الي بالاعداد الاولى منها . انا لا اتوقع نتيجة ذات شأن ، لكن من يعش ير . فرميه الطيب غمرني في الايام الاولى (فيما كنت لا ازال في اوتيل دوريان) ، اعني انه طوفني في الجبال وفي المدينة ، بل جعلني ايضا اتكلم اكثر مما ينبغي . وقد وضعت حدا لذلك بافهامه انني انسان عاجز ، ولكنه فعل ذلك بأطيب نية ، وهو يعلم الآن ان الهدوء والعزلة والصمت هي بالنسبة الي واجب المواطن (٢١) .

= ان تدين الاضراب ، بأن يحترم العمال وارباب العمل معا «قواعد اللعبة»، وعارض شارل لونفيه نفسه « الحرب الاجتماعية » بما اسماه ب « الصراع المشروع » . ولعل ماركس الذي يوجه خطابه الى ابنته قد تحاشى هنا ان يعلن موقفه ، ولكن مما لا شك فيه ان عواطفه كانت مع الصحيفتين العماليتين « المساواة » و « المواطن » اللتين ادانتا كذلك ، في سنة ١٨٨٢ تلك ، العمليات العسكرية الاستعمارية في تونس والتدخل ضد ثورة عرابي في مصر . ويظهر تحبيذ ماركس هذا من خلال توكيده بانه يطالع من كل الصحف الباريسية صحيفة « المساواة » وحدها ، وهذا بالرغم من تحظير الطبيب عليه كل مطالعة خلا « القراءات المسلية » . «م»

(١٩) الكارثة التي يشير اليها ماركس هي فك خطوبة ابنته اليانورا مع بروسبر اوليفيه ليساغاري (١٨٣٨ – ١٩٠١) وهو صحفي يساري شارك في عامية باريس والف عنها كتابا بعنوان « تاريخ العامية ». وقد عاشر اسرة ماركس اثناء المنفى اللندني وخطب اليانورا . «م»

(٢٠) بعد فك الخطوبة وعودة ليساغاري الى باريس اصدر في ايار ١٨٨٢ صحيفة باسم « المعركة السياسية والاجتماعية » وقد اندمجت لاحقا ، ولحين من الزمن ، مع صحيفة « المواطن » التي مر ذكرها . «م»

(٢١) تلاعب لفظي على القول السائر الالماني : « النظام هو واجب المواطن الاول»«م»

قبِّلي الصغار كلهم . تحياتي للونغيه . والكثير من القبلات لك انت يا طفلتي العزيزة ،

اولد نك

(٦)

رسالة ماركس الى بول لافارغ في باريس

الاثنين ٢٠ آذار

عزيزي بول

تسلمت اليوم (الـ ٢٠) رسالتك اللطيفة المؤرخة في الـ ١٦ ، والظاهر انها استغرقت للوصول وقتا اقل بكثير من ذاك الذي تستغرقه عادة رسائل لندن .

اولا، ايها الغاسكوني الشجاع، « ماذا يعني مصطفى الاعلى»؟ مصطفى اسم شخصي مثل جون (٢٢) . وعندما تغادر مدينة الجزائر من شارع اسلي ، ترك امامك شارعا طويلا . من جهة تنتصب ، عند سفح التل ، فيلات مغربية محاطة بالحدائق (احدى الفيلات هي اوتيل فكتوريا) ، ومن الجهة الاخرى تحف بالطريق بنايات مصفوفة على شكل مصاطب وصولا الى ادنى المنحدر وهذا كله يسمى « مصطفى الاعلى » . اما مصطفى الادنى فيبدأ من اسفل مصطفى الاعلى ويمتد حتى البحر . ويشكل المصطفيان بلدية

---

(٢٢) يبدو ان ماركس لا يعرف اصل اسم ضاحية مصطفى في الجزائر : فالتسمية جاءت من اسم داي الجزائر مصطفى باشا (١٧٠٠ ـ ١٧٠٥) . «م»

(مصطفى) لها عمدة (ليس لهذا السيد اسم عربي ، ولا فرنسي ، وانما اسم الماني) يتوجه الى رعيته من حين الى آخر ، بواسطة ملصقات رسمية ، بشتى ضروب البلاغات . انت ترى اذن ان النظام السائد هنا وديع جدا . في مصطفى الاعلى تشاد بلا انقطاع دور جديدة ، وتهدم القديمة ، الخ ، وبالرغم من ان العمال المستخدمين في هذه الاشغال هم من اهل البلاد ، فانهم يصابون بالحميات . ولهذا فان قسما من اجرهم يتمثل في جرعة يومية من الكينين يقدمها اليهم المقاولون . وهذه العادة تلاحظ ايضا في مناطق شتى من اميركا اللاتينية .

يا عزيزي اوغير ، كم انت حسن الاطلاع ! (من قبيل ذلك انك تكتب) : « لا بد انك تلتهم جميع الصحف الفرنسية التي تباع في الجزائر » ، وفي الحقيقة ، انا لا أقرأ حتى الصحف القليلة التي يتلقاها سائر نزلاء « اوتيل فكتوريا » من باريس : فمطالعاتي السياسية تقتصر على برقيات « بتي كولون » (صحيفة جزائرية صغيرة تشبه « بتي جورنال » و « بتيت ريبوبليك فرانسيز » ، الخ ، التي تصدر في باريس) . هذا كل شيء .

كتبت الي جيني تخبرني انها ارسلت الي مقالات لونغيه التي ذكرتها انت ، ولكن حتى الآن لم استلم شيئا . والصحيفة الوحيدة التي اتلقاها من لندن هي Egalité ، لكن لا يمكن وصفها بأنها صحيفة .

ايها القديس بولس ، وما اعجبك من قديس، من اين علمت او من قال لك انه ينبغي علي ان استعمل « لفافات اليود » ؟ تقاطعني قائلا : « هذا شيء ثانوي » ، لكنه ينم عن كل طريقتك فيما يتعلق بـ « الوقائع المادية » . **من مخالبه يعرف الاسد** . وفي الواقع ، وبدلا من لفافات اليود التي تتحدث عنها ، يتوجب علي ان ادهن ظهري بالكولوديون الذراحي لامتصاص الماء . واول مرة رايت فيها

جنبي الايسر (الصدر والظهر) يعالج بمثل تلك الطريقة ، حضرت الى ذهني صورة حقل صغير من الجبس . ومنـــذ رسالتي الى انجلز في ١٦ آذار ، لن تجد لا في ظهري ، ولا على صدري (دوره الآن للدهن) ، مربعا جافا مهما تناه في الصغر يمكن اخضاعه بعد للعلاج ، ومن المتعذر استئناف هذا العلاج قبل يوم الـ ٢٢ .

تقول : « ارفق ضمنا دعوة ستضحكك » . هذه عادتك . كيف تريدني ان اضحك والدعوة « المرفقة » ما تزال بين يديك ؟ اذا سنحت الفرصة سأذكّر السيد فرميه برفيقه البرودوني القديم لافارغ . اما الآن ، وما لم يأذن لي الدكتور بالخروج ، فلا ارغـب في ان اسمح لكائن من كان بأن يزورني لمدة طويلة او بأن يجعلني اتكلم مطولا .

السماء ما تزال تمطر ، والطقس متقلب جدا حتى انه يتغير من ساعة الى اخرى ، مارا بجميع الاطوار او منتقلا على العكس من ضد الى ضد . وعلى الرغم من كل شيء ، يلاحظ ميل الى تحسن تدريجي ، لكن لا مناص من الانتظار . وتصور ان الطقس في نيس كما في مانتون رائع للغاية منذ رحيلي من مرسيليا . لكن شمس افريقيا والهواء هنا لا بد ان يحدثا معجزات : لقد كانت كما تعلم ، فكرة ثابتة ، وانا لست عنها مسؤولا !

يوم السبت الماضي دفنـــا في مصطفى الاعلى احد نزلاء « فكتوريا » ، آرمان مانيادير ، وهو فتى في مقتبل العمر بعث به اطباء باريسيون الى هنا . كان مستخدما في مصرف ، في باريس ، وكان ارباب عمله يواصلون دفع تكاليف علاجه في الجزائر ، واكراما لوالدته اصدروا تعليماتهم بنقل جثمانه الى باريس . وهذا كله على نفقتهم . والحق اننا نادرا ما نلاقي مثل هذا الكرم لدى اناس يديرون « مال الغير » .

النوم يعود شيئا فشيئا . من لم يعرف الأرق لا يمكن ان

يقدر الاحساس المريح الذي ينتاب المرء حين يتراجع اخيرا الخوف من ليالي لا نوم فيها .

تحياتي الحارة الى كاكادو العزيزة والى الاصدقاء جميعا !

المخلص لك
كارل ماركس

(٧)

بطاقة بريدية من
ماركس الى انجلز في لندن

٢٣ آذار ، الخميس

العزيز فريد

انتهى مساعدي (٢٣) للتو ، بعد الافطار ، من فقء الفقاعات الكثيرة التي ظهرت في مقدمة جذعي بفعل الدهن بالامس والتي انتفخت كثيرا ، وبعد ذلك يجب ان اتكاسل في السرير في راحة تامة لمدة ساعة او ساعتين . ومن السرير اخط لك سطرين على هذه البطاقة البريدية . وبصورة استثنائية ينطلق في ساعة مبكرة من هنا اليوم الغلام الذي يحمل الى الجزائر البريد ، الخ (لا بريد الى فرنسا يومي الاثنين والاربعاء) .

---

(٢٣) موريس كاستلاز : الصيدلي الشاب الذي كان يتولى مهمة المرض بالنسبة الى ماركس . «م»

منذ الثلاثاء (٢١ آذار) ، وخلا الوقفات التي لا بد منها ، تهب عاصفة جديدة وتعصف ليل نهار . الرعود والبروق نادرة ، ولكن في المساء مطر ، وخاصة في الليل ، وكذلك هذا الصباح . ما استرعى انتباهي بوجه خاص ، عصر الثلاثاء ، حين لاحت نذر العاصفة ، السماء التي بلون الحبر ، الداكنة ، المكفهرة . في هذه العاصفة تلعب ريح الشلوق ، الافريقية حقا ، دورا . كان د. أسطفان هنا بالامس . زيارة تبعث على الرضى . تقدم . ولكن لا تزال هناك ، على الصدر ، منطقة مصابة في اسفله ، والمنطقة المناظرة لها على الظهر . وعلى مساعدي في الاسبوع القادم (اي يوم الاربعاء او الخميس من الاسبوع القادم) الا يدهن تينك المنطقتين ، اذن فاسطفان يحتفظ لنفسه بهذا العمل .

تحياتي للجميع .

مغربيك

(٨)

رسالة الى جيني لونغيه

الاثنين ٢٧ آذار ٨٢

طفلتي العزيزة

استلمت رسالتك اليوم (٢٧ آذار) . انت تعلمين مقدار سروري كلما جاءني شيء من اخبارك . رسائلي لم تخف عنك الأسوأ . وعليه ، كوني مطمئنة الى انني اقول الحقيقة الحقة حين اخبرك ان صحتي في تحسن تدريجي منذ رسالتي الاخيرة . الأرق

انتهى (وهو ما لا يطاق اكثر من اي شيء آخر) . الشهية عادت، ونوبات السعال باتت اقل عنفا ، والسعال خف بالفعل كثيرا . بديهي ان المنفطات لا يمكن دهنها الا مرة واحدة في الاسبوع لان مفعولها فظيع . وعليه ، فان اندمال غشاء الجنب فيالجانب الايسر (الانسجة الباطنة لم تصب بتاتا) سيستغرق بعض الوقت . الطقس ، هذا صحيح ، متقلب للغاية وهو في تغير دائم ـ عواصف، قيظ ، برد ، وقليلة هي الاويقات الجميلة حقا ـ وما افتقده هو الهواء الجاف والحار بصورة دائمة ، الهواء الموسمي ! بالامس تغير الطقس الى افضل ما يكون ، وكان النهار رائعا ، فتنزهت ـ اما اليوم فسماء رمادية (على اسوداد) ، وامطار مدرارة ، وريح جهنمية . وقد بدأ الناس يضجون هنا ـ فحتى افضل الاشياء لها نهاية ـ وطقس كهذا لم يشاهد مثله في الجزائر منذ كانون الاول (ضمنا) . لقد كان من الضروري الاستعلام قبل الاندفاع في مغامرة مجهولة العواقب كهذه .

بيني وبينك ، الطقس في جزيرة وايت لم يكن رحيما ، لكن صحتي تحسنت آنئذ الى حد اثار الدهشة لدى عودتي الى لندن غير انني في فنتنور كنت في دعة وسلام . اما في لندن، على العكس، فان عصبية انجاز قد ارهقتني (لافارغ ايضا ، ذلك المشعوذ ، كان يعتقد ان كل ما انا بحاجة اليه هو « المشي » وهواء الريف ، الخ) : ولما لم تعد عندي طاقة على الاحتمال اردت مغادرة لندن بأي ثمن ! ان من الناس من يحبونك باخلاص قاتل : ولا شيء اخطر من ذلك على ناقه ! .

كما اخبرتك ، يا طفلتي العزيزة ، اسعفني الحظ بالوقوع على اناس حفواء ، بسطاء ، ودودين (سويسريين رومانشيين وفرنسيين من فرنسا ، لا المان ولا انكليز في الفيلا ـ الاوتيل) . السيد موريس كاستلاز الذي يعمل متطوعا تحت امرة د. اسطفان.

وما كانت نيم (٢٤) نفسها لتتفوق عليه في العناية والاهتمام . اذن، يا طفلتي ، لا ينشغل لك بال علي : فأنت تعتقدين ان الجميع قد تخلوا عني . ولكن هناك ما فيه الكفاية من الرجال والنساء للاعتناء بي . ثم انه من امتياز « المريض » ان يلوذ بالصمت ويختلي بنفسه، وهذا ما افعله في كل مرة افضل فيها الانفراد بنفسي او الانصراف عن عشرة الناس .

بوجه العموم ، نحيت جانبا بصورة تامة الصحف اليومية الفرنسية والانكليزية ؛ الخ . وانا لا اقرأ سوى البرقيات . ومما قد اتمناه على سبيل المثال مقالات لونغيه عن الاضراب (وقد اشاد بها لافارغ في احدى رسائله) . اما عن حماقة ماسار (٢٥) فلا اعلم عنها شيئا سوى ما كتبته لي .

اكتبي الى هيرش كي يرسل الي مساهمته ــ آدم (٢٦) . كم بودي لو كان في استطاعتي ان احضر جوني الى هنا على بساط ريح ، في يوم من ايام الصحو الرائعة الجمال . ولشد ما ستكون دهشة حبيبي الصغير حين سيشاهد مغاربة وعربا وبربرا وتركا وزنوجا ؛ وباختصار كل برج بابل والازياء (الشاعرية في كثير من الاحيان) ، هذا العالم الشرقي الذي يختلط فيه فرنسيون « متمدنون » وانكليز كئيبون . قبّلي ايضا صغيري هاري، وولف

---

(٢٤) هي هيلين ديموث المتقدم ذكرها . «م»

(٢٥) اميل ماسار : صحفي اشتراكي فرنسي كان يحرر في صحيفة الغيديين الآنفة الذكر « المواطن » التي لن يلبث ان يتركها . «م»

(٢٦) كارل هيرش : صحفي اشتراكي ــ ديموقراطي الماني كان مهاجرا آنئذ الى باريس ، وكان يكتب في « المجلة الجديدة » الجمهورية التي تصدرها السيدة آدم . وقد ساهم فيها بمقال بعنوان « الاشتراكية في المانيا » . «م»

النبيل ، وبا الكبير . (٢٧) .

والآن الى اللقاء ، يا طفلتي العزيزة جدا ، تحياتي للونغيه .

اولد نك

لا مجال للعمل ، ولا حتى لتصحيح « الراسمال » من اجل طبعة جديدة (٢٨) .

(٩)

رسالة من ماركس الى انجلز في لندن

٣١ آذار ٨٢

العزيز فريد

٢٨ آذار : جو ممطر ، مكفهر منذ اولى ساعات هذا الصباح: على هذه الكلمات ختمت الرسالة المقتضبة الى توسي (٢٩) . لكن عقب ارسالها ، هبت عاصفة ، ولاول مرة بحسب قواعد الفن، لا ريح مزمجرة وامطار مدرارة ورعود فحسب ، بل كذلك بروق متواصلة . وقد دام ذلك الى ساعة متأخرة من الليل مع انخفاض ملموس في درجة الحرارة ، كالمعتاد . لقد كان توزيع الالوان على

---

(٢٧) احفاد ماركس الاربعة : جوني ـ جون ، وهاري ـ هنري ، وادغار الملقب بالذئب (وولف) ، وبا ـ مرسيل . «م»

(٢٨) ستظهر الطبعة الالمانية الثالثة من « الراسمال » بعد وفاة ماركس . وسيتولى تصحيحها انجلز . «م»

(٢٩) توسي : ابنة ماركس الثالثة ، اليانورا . ورسالته اليها مفقودة . «م»

الامواج في الخليج الجميل الذي يكاد يشكل مقطعا اهليليجيا ، مشهدا مثيرا : فقد كانت تحدق بالامواج لدى اصطفاقها وارتدادها كتلة مائية يتحول لونها من الازرق الى الاخضر .

٢٩ آذار (الاربعاء) : ضباب كئيب ، وعويل الريح لا يقل كآبة . طقس بارد ورطب .

في ذلك اليوم ، وقبيل الغداء (في الساعة الحادية عشرة والربع او الحادية عشرة والنصف) وصل د. اسطفان لغرض محدد : « تكريس » نفسه لعملية دهن المناطق السفلى من الظهر والصدر التي كان قد علّمها واحتفظ بها لنفسه ليتصدى لها شخصيا . وقد سبق ذلك ، كما في كل زيارة ، فحص كامل للصدر بالتنصت . والوضع احسن بكثير بالنسبة الى القسم الاكبر من الجانب الايسر . اما المناطق السفلى التي تحدثت عنها فما عادت تصدر (عند التنصت) سوى صوت اصم بدلا من موسيقى هلمهولتز : ولا سبيل الى اعادتها الى حالتها الصحيحة الا تدريجيا (ورداءة الطقس تحول دون تقدم اسرع) . لاول مرة اليوم صارحني اسطفان ـ لانه يرى ولا شك انني تحسنت بما يكفي لكي يتمكن من الكلام بصراحة ـ بانني عند وصولي الى الجزائر كنت قد انتكست وان هذا الانتكاس كان خطيرا للغاية . وما كان لغير المنفطات ان تخفف من الانصباب . وقد سارت الامور بأحسن مما كان يمكنه ان يتوقع . لكن سيكون علي طيلة سنوات أن الزم جانب الحذر الشديد . وحين سأغادر الجزائر ، سيزودني بتشخيص طبي مكتوب موجه ، بصورة خاصة ، الى طبيبي اللندني . ومن المهم بالنسبة الى اشخاص في مثل سني الا تتكرر كثيرا تجربة مثل تلك الانتكاسات . بعد بضع ساعات من الغداء ، دبت حركة موجعة في اللوحة المنقوشة على جلدي ، مثلي مثل شخص يحس بأن أدمته قد ضاقت عليه ويود لو يمزقها

حتى يخرج منها. ليلةمضنية. كان محظورا علي الحك حظرا باتا .

٣٠ آذار : في الساعة الثامنة صباحا ، جلس ممرضي امام فراشي ، وكانت فقاعاتي قد انفقأت كلها بالاجمال نتيجة لحركات تلقائية . فيضان حقيقي حدث ليلا واغرق اللحاف والفلانيلا والقميص . لقد كان اذن للتدهين مفعول ملحوظ على النقاط المصابة . وسرعان ما ضمدني مساعدي اللطيف كيلا يجنبني احتكاك الفلانيلا فحسب ، بل كذلك كيما يتواصل امتصاص الماء بالشكل المناسب . وقد وجد السيد كاستلاز هذا الصباح (٣١ آذار) ان الامتصاص يقارب نهايته وان الجلد قد جف او كاد . وفي هذه الحال سيكون في مستطاعي فيارجح الظن ان اتفادى عملية تدهين ثانية في بحر الاسبوع الذي يبدأ في ٢٩ آذار. هذا افضل .

في ٣٠ آذار (البارحة) صار الجو دافئا ولطيفا عند الظهر ، وقد تنزهت على الشرفة . بعد ذلك رقدت قليلا كي اعوض سهاد الليل ، وهذا ما سأفعله اليوم ايضا ، لان الحرص الموسوس على عدم حك جلدك يبقيك متيقظا ، حتى وان كنت لا تتوجع ، كما حدث لي في ليلة ٣٠ ـ ٣١ .

الجو اليوم (٣١ آذار) غائم . على كل حال لم يهطل مطر . لعل الطقس سيصبح « جميلا » بصورة نسبية كما في الامس ، عند الظهر الذي لم يعد بعيدا .

لا شيء آخر لدي اضيفه الى النشرة الصحية ، والحالة بالاجمال تبعث على الرضى .

استلمت اليوم رسالة من توسي الصغيرة .

بالمناسبة ، لقد وردتني منذ بعض الوقت الرسالة المرفقة . وقد عجزت عن قراءة الامضاء ، وهذا ما ستقدر انت على فعله . انها لظاهرة غريبة على كل حال : محام من كدلنبرغ (٣٠)

---

(٣٠) كدلنبرغ : مدينة المانية صغيرة . «م»

له تصوره الخاص عن العالم ! نقطة واحدة غامضة بالنسبة الي . هل سبق لهذا الرجل ان ارسل الى متلاند بارك (٣١) نسخة من « كتابه » الذي يكرسه لي ام انه يريد الحصول اولا على عنواني المضبوط كيما يصلني كتابه بكل تأكيد ؟ في الاحتمال الاول ، يفترض بتوسي ان تبلغه باستلام كتابه ، وفي الحالة الثانية ان ترسل اليه عنواني « المضبوط » .

يا عزيزي ، انت وسائر افراد الاسرة ، تأخذكم الدهشة ولا بد من اخطائي في الاملاء وفي تركيب الجملة ، ومن اغلاطي في القواعد ، انني لا انتبه اليها ـ بالنظر الى شرودي الذي ما يزال كبيرا ـ الا بعد وقوعها . وهذا يدلك على انه ما يزال هناك شيء مصاب بالخلل في « العقل السليم في الجسم السليم » . ولكن بمرور الزمن لا بد ان يتحسن الامر .

الآن قرع جرس الغداء، وبعد ذلك لا بد ان تكون هذه الرسالة جاهزة للغلام الذاهب الى الجزائر . سلامي اذن [لك] وللجميع .

مغربيك

(١٠)

رسالة الى انجلز في لندن

الثلاثاء ٤ نيسان ٨٢

العزيز فريد

تلقيت بطاقتك البريدية . وصلت كذلك رسالة لوريت (٣٢)

---

(٣١) متلاند بارك : عنوان ماركس في لندن . «م»

(٣٢) هي ابنته لورا لافارغ . «م»

المؤرخة في ٢٩ آذار .

كل تهاني الى بامبس (٣٣) .

بالنسبة الي ، الامور تتقدم جيدا بوجه الاجمال ، لكن الطقس يحيلني الى شهر نيسان .

في ٣١ آذار ، بعد ظهر يوم الجمعة ـ كنت قد ارسلت اليك اسطري قبل ذلك ببضع ساعات ـ زارني فرميه ، وقد ابلغني في ما ابلغني السر الذي باح له به اختصاصي في الارصاد الجوية من اصدقائه : في الاسبوع القادم ستعصف اولا ريح الشلوق ، ثم ستعقبها ٣ـ٤ ايام ممطرة ، واخيرا سيبزغ الربيع المعتاد بكل ألقه. ومن يرفض ان يصدق ذلك ، يكن مخطئا .

اثناء ذلك كان يوم السبت (١ نيسان) كيوم الاثنين (٣ نيسان) دافئا (ثقيلا اكثر مما ينبغي الى حد ما) ، لكن الريح ، وان لم تكن ريح الشلوق ، سمرتني في رواقي بسبب زوابع الغبار. وبالمقابل كان الطقس في صبيحة ٢ نيسان (الاحد) جميلا جدا ؛ حتى لقد دعاني الى نزهة طويلة لمدة ساعتين .

في الليلة الفائتة صدحت الريح. وعند الساعة ٥ من فجر اليوم هطل المطر . والجو منذ الساعة ٨ جاف ، والسماء محتجبة ، وهبوب رياح متواصل . البارحة مساء تلألأ الخليج على نحو رائع تحت ضوء القمر . وانا لا أسأم ابدا من تأمل البحر من رواقي .

اجمل التحيات الى جوليماير (٣٤) ، وكذلك الى الآخرين .

مغربيك

---

(٣٣) التهاني بمناسبة وضعها طفلة . «م»

(٣٤) هو صديق انجلز كارل شورليمر ، الملقب ايضا بكلوروميجور . «م»

(١١)

رسالة الى جيني لونغيه في ارجنتاي

٦ نيسان ٨٢

طفلتي العزيزة

جاءني القاضي فرميه للتو برسالتك المؤرخة في ٣١ آذار . رسائلك هي على الدوام مصدر فرح كبير لي ، ولكن كيف تهيأ لك، يا طفلتي العزيزة ، الوقت لكتابتها ؟ ان غما كبيرا ينتابني كلما فكرت بشغلك البيتي الذي ألجأك الى خدمات اميلي ، تلك الفاجرة الغريبة الاطوار ، مع ان اطفالك الاربعة يكفون وحدهم لملء كل وقت خادمة من الطراز الاول .

قبل بضعة ايام سلمني فرميه ايضا نسخ الـ Justice التي كنت وعدتني بها (والتي ظهرت فيـها الهذيانات التي كان هيرش قد نشرها في « مجلة » السيدة آدم — . مقالات لونغيه عن « الاضراب » جيدة جدا . ملاحظة عابرة : انه يقول ان لاسال قد وجد فقط الكلمات (لا القانون (٣٥) نفسه الذي كان قد عرضه ريكاردو وتورغو الخ) . وفي الواقع ، اقتبس لاسال التعبير من غوته — وهو تعبير معروف جيدا لدى الالمان «المثقفين»— الذي حوّل هو نفسه « قوانين سوفوكليس الابدية الثابتة » الى « قوانين حديدية ابدية » .

لقد اضطر فرميـه الى الجلوس قبالتي في غرفتي والى

---

(٣٥) « قانون الاجور الحديدي » المشهور الذي قال به لاسال . «م»

القراءة في صمت ، الى ان انهيت رسالة الى توسي (٣٦) كيما يتمكن الغلام الذي يذهب الى الجزائر من حملها معه (في اليوم نفسه تلقيت رسالة من توسي ، وكذلك من انجلز) .

اليوم انتظر د. اسطفان . واذا جاء ، فسيمكنني ان انقل اليك نتيجة زيارته ، قبل ان ارسل اليك هذه الاسطر غدا صباحا. وفي الانتظار ، توالي حالتي الصحية تحسنها ، وان ببطء بالنسبة الى انسان يرغب في ان يعيش من جديد حياة نشيطة وان يضع حدا لمهنة العاجز الغبية هذه . ولئن استمرت الحال على ما هي عليه ، فذلك فقط بسبب هذا المناخ الجزائري الرهيب . مناخ غير عادي بالمرة ، لم يعرف له مثيل في السنوات الاثنتي عشرة التي امضاها فرميه هنا . والطقس ما يزال غير مستقر ، متغيرا ، متقلبا . طقس نيساني . المطر يعقب بغتة الشمس ، والرطوبة بل البرد الصقيعي يعقبان حمارة القيظ ، والسماء الصافية تغيم فجأة وتنقلب الى سواد ، والجو الجاف يتشبع فجأة ببخار الماء . باختصار ، شتان ما بين الطقس هنا وبين «الطقس الجميل الدائم» او « الطقس الربيعي » كما « اعتادت » عليه الجزائر . وبالرغم من كل شيء ، حين لا تعصف الريح بعنف ، وحين لا تمطر السماء ، تكون الساعات الاولى من ايام نيسان هذه لطيفة ، بحيث امكنني اليوم ، كما في الامس والاول من امس ، ان اقوم بنزهاتي الصباحية . ولقد كانت هذه النزهات الثلاث المتعاقبة التي دامت الواحدة منها ما بين الساعة والساعتين مصدر سرور لي .

قاطعتني الآن ضجة صادرة من البستان الصغير المدرّج (بستان يعج بالازاهير الحمر) . من هذا البستان المدخل الى شرفتنا (التي يوجد خلفها الطابق الاول من الفيلا) ، بينما تتصل

---

(٣٦) لنكرر القول بأن رسائل ماركس الى ابنته اليانورا ، اي توسي، مفقودة.«م»

غرفتي في الطابق الثاني (مع خمس غرف اخرى) بالرواق الصغير الواقع فوق الشرفة . ومن الموضعين يطل المرء على البحر وعلى مشهد طبيعي خلاب أينما أجال الطرف . اذن ، لقد اخرجتني الضجة الى الرواق ، آه ! لكم كان جوني الصغير سيضحك بملء قلبه ، بضحكته المرحة ، لو كان هنا الى جانبي : فتحت ، في البستان ، كان يرقص زنجي ذو جلد اسود بسواد الزفت ، وهو يعزف على كمان صغير ، مطقطقا صناجاته الحديدية الطويلة ، متلويا أغرب التلوي ، ووجهه متشنج بابتسامة عريضة مرحة . لقد كان زنوج الجزائر هؤلاء ، فيما غبر من الايام ، عبيدا بوجه عام للترك والعرب ، الخ ، لكنهم صاروا احرارا في العهد الفرنسي.

خلفه ، خلف ذلك الزنجي ، ينتصب شخص آخر ، في غاية الوقار ، ينظر ويبتسم بتسامح لا يخلو من تعجرف وهو يرنو الى منظر الاسود . انه مغربي Maure (بالانكليزية : Moor ، وبالالمانية : Mohr . ولكنهم في الجزائر لا يقولون : مغاربة ، بل يقولون العرب . اقلية صغيرة هجرت الصحراء وقبائلها ، وقطنت في المدن الى جانب الاوروبيين . انهم اطول من متوسط الفرنسيين ، ووجوههم بيضوية الشكل ، وانوفهم كمنقار النسر ، وعيونهم واسعة براقة ، وشعورهم ولحاهم سود ، ولون جلدهم سلَّم يتدرج من الابيض الى السمرة الداكنة . اما لباسهم فأنيق ورشيق — وحتى عندما تكون ثيابهم عبارة عن أسمال ، فلا بد ان يكون معها سروال (او معطف، او بالاحرى رداء فضفاض من الصوف الابيض الناعم) ودثار ذو قلنسوة. اما غطاء رؤوسهم (في الطقس الماطر، او في حمارة القيظ، الخ)، وقد تقوم القلنسوة مقامه، فعبارة عن عمامة او منديل من الموصلين الابيض يلف حول طاقية . وسيقانهم ، بوجه عام ، عارية ، وكذلك اقدامهم ، لكنهم قد ينتعلون احيانا

اخفافا من السختيان (٣٧) الاصفر او الاحمر .

ان أزرى المغاربة شأنا يتفوق على اكبر ممثلي اوروبا في « فن التدثر » بردائه ، وفي اتخاذ هيئة طبيعية ورشيقة ووقور سواء أعندما يمشي ام عندما ينتصب واقفا. (حين يمتطون بغالهم، او حميرهم ، او ــ وهذا اندر ــ أحصنتهم ، يدلون الساقين من جانب واحد بدلا ان يشدوا على الدابة بينهما ، نظير الاوروبيين ــ وهذا ما يضفي عليهم هيئة من الرخاوة) .

اذن فصاحبنا المغربي ــ الذي يقف خلف الزنجي في بستاننا ــ يعرض بصوت رنان « برتقالا » و « ديوكا » (بما فيها دجاجات) ، وهذا مزيج غريب من المنتجات الدارجة هنا . وبين المغربي الذي لم يتخل ، حتى في هذه اللحظة ، عن شيء من مظهره الجليل ، والزنجي الذي يرقص مقهقها ويتقدم بخطى وئيدة ، يقف حيوان ــ طاووس لا حد لغروره (يخص احد النزلاء) بعنقه ذي اللون الازرق الرائع وزينة ذنبه الطويل الغنية . كم كان بودي ان اسمع قهقهات صغيري جوني لمرأى هذا الثلاثي .

الساعة الآن الرابعة (طبيعي انني ازجيت شطرا من العصر في الثرثرة مع فرميه الذي جاءني برسالتك ، ثم نزل الى الجزائر). السماء تمطر بغزارة ، وتدني الحرارة المفاجىء امر مؤسف للغاية. افضل تحياتي للدكتور دورلين !

٧ نيسان ٨٢

لم ينقطع خيط المطر طوال الليل . والسماء هذا الصباح غائمة ، ولكن بلا مطر . الهواء لطيف ، ولكن مشبع ببخار الماء . تنزهت لساعة من الزمن (من الساعة ٩ الى ١٠ صباحا) وانا

---

(٣٧) السختيان : جلد الماعز المدبوغ والملون . «م»

أتساءل بيني وبين نفسي ان كان المطر لن يفاجئني ـ ولكن لا ، ليس الى الآن نظرا الى ان د. اسطفان لم يأت لا امس ولا اول امس ، فقد كتبت اليه هذا الصباح ، لكن هذه الاسطر لن تنتظر زيارته ، اذ لا بد من ارسالها اليوم . انه لن يأتي قبل الخامسة عصرا . وكما ترين ، فانها لعلامة طيبة ان يهملني الدكتور قليلا . وبعبارة اخرى ، انه ما عاد قلقا الى حد القيام بزياراته في مواعيد ثابتة وعلى فترات قصيرة . ألا كم سأكون سعيدا حين سأعود الى احفادي وامهم العظيمة ! انني غير مستعد اطلاقا لاطالة امد اقامتي هنا الى اكثر مما يرى الدكتور ان لا مناص منه .

كثير من القبلات من
اولد نك

بعث الي انجلز بالقصاصة المرفقة من صحيفة جرمانية ـ اميركية . وهي عبارة عن نقد مسل لـ « الشعر المنزلي » الالماني الاخير . آمل ان يحاول لونغيه فهمه .

طفلتي العزيزة ، كنت قد ختمت هذا الظرف، وقد اضطررت الى اعادة فتحه . د. اسطفان جاء ابكر قليلا مما هو متوقع . وبعد ان فحصني ارتأى ـ وانا مسرور لاعلامك بذلك ـ ان جنبي الايسر قد شفي بقدر الايمن تقريبا .

رسالة الى انجلز

٨ آذار (٣٨) (السبت) ٨٢

العزيز فريد

امس في الساعة ٤ عصرا ، قام الدكتور اسطفان بفحص صدري . وقد كان راضيا جدا رغم تقلبات الطقس التي تتسبب باستمرار في انتكاسات جديدة بفعل البرد . وقد وجد انالانصباب قد اختفى تماما تقريبا في المنطقة السفلى (الى اليسار ، بجنب الصدر) ؛ ولم تبق سوى نقطة واحدة تقاوم (الى اليسار ، في الاسفل) في الظهر . وقد عولجت هذه النقطة بصورة خاصة عن طريق دهن الجلد بالكولوديون الذراحي . وكانت النتيجة آلاما مبرحة للغاية ، بفضل ذلك « الرسم » ؛ وليلة ارق (من ٧ الى ٨ آذار) (٣٨) ، ولكن في هذا الصباح ايضا ضخ ناجع جدا للماء من الفقاعات التي تشكلت . لا يخامرني شك اذن الآن بأن نقطة التعثر هذه ستتم تصفيتها بدورها بسرعة كبيرة . وقد كان على ممرضي السيد كاستلاز ان يعمل لمدة نصف ساعة في حقلي الاخضر بلون الجبس ، ثم كان علي ان ابقى راقدا حتى وقت الغداء في الساعة ١١و½ . فبعد التضميد يستمر ضخ الماء في تلك الوضعية قطرة قطرة على انسب وجه .

بالمقابل ، وجد اسطفان ان سعالي ، بفعل رداءة الطقس ، قد

---

(٣٨) سهو من ماركس ، يجب ان نقرأ (نيسان) بدلا من (آذار) . «م»

اشتد قليلا (لكن الامر نسبي ، لان السعال كان قد خف كثيرا) : وقد امكنني هذا الاسبوع ، طيلة اربعة ايام ، ان استغل الصبحيات للتنزه . ومنذ عصر امس والى الساعة ، لم ينقطع حبل المطر . وأثناء الليل وهذا الصباح اخذ المطر « شكلا سيليا » . وقد جرت اليوم محاولة واهنة لتدفئة غرفة الطعام ، لكن هذه المدافىء لا يبدو عليها ، والحق يقال ، انها وجدت لهذا الغرض ، وانما فقط للزخرفة .

بعد تناول الغداء لزمت الفراش الى حوالي الساعة ٢ ؛ لأعوض قليلا عن الليلة الفائتة ، لكن الشيطان اراد ان تكون المحاكم معطلة هذا الاسبوع والاسبوع التالي : وهكذا أحبطت خطتي بفضل القاضي فرميه ــ اللطيف جدا بالاصل ــ الذي لم يغادرني الا عند الساعة ٥ عصرا ، ساعة اقتراب موعد العشاء .

روى لي فرميه ، في ما روى ، انه اثناء عمله كقاضي صلح (وهذا بصورة نظامية) كانوا يستعملون نوعا من التعذيب لانتزاع الاعترافات من العرب ، وبديهي ان « الشرطة » هي التي تتولج بذلك (كما لدى الانكليز في الهند) ، والمفروض بالقاضي انه لا يعلم اي شيء من هذا كله . يضاف الى ذلك ، على ما روى ، انه حين تقترف على سبيل المثال عصابة من العرب جريمة قتل ، وفي غالب الاحيان بغرض السرقة ، وانه حين يتم فيما بعد اعتقال الجناة الحقيقيين ومحاكمتهم وقطع رؤوسهم ، فان هذا التكفير لا يكفي اسرة المعمرين المتأذين . فهي تطالب بأن تقطع فضلا عن ذلك رؤوس نصف دزينة من العرب الابرياء . لكن هنا يبدي القضاة الفرنسيون ، وعلى الاخص محاكم الاستئناف ، مقاومة ، بينما يتعرض القاضي المنعزل والوحيد هنا وهناك بصورة استثنائية للتهديد بالقتل من قبل المعمرين اذا لم يأمر بالقاء القبض بصفة مؤقتة (لا تذهب صلاحية القاضي الى ابعد من

ذلك) على دزينة من العرب الابرياء الذين توجه اليهم شبهة القتل او السطو الخ ، وبشمولهم في التحقيق بالقضية .. ونحن نعلم حق العلم انه حيثما اقام معمر اوروبي او حيثما حط به الرحال بداعي تجارته وسط « عروق دنيا » بوجه العموم ، فانه يعتبر نفسه غير قابل للمس اكثر حتى من غليوم الجميل (٣٩) . غير ان الانكليز والهولانديون يبزون الفرنسيين في الصلف السفيه والادعاء وشراسة الانتقام والوحشية الجديرة بمولوخ (٤٠) في مواجهة « العروق الدنيا » .

من المكمن انتظار الشيء الكثير من الرسالة العائلية لبامبس. وبالمقابل ، يباح لنا ان نلقي شكوكا حول الرسالة السياسية لهندمان (٤١) . ولئن وضعته كلمتك في موضع الحرج ، فحسنا ما فعلت بالنسبة الى شخص مثله : اذ ان صفاقته تجاهي كانت محسوبة ومبنية على فكرة انني لا استطيع انا نفسي « لاعتبارات الدعاية » ان اندد به علنا . ولقد كان يعلم ذلك حق العلم .

ان ذلك الثرثار الذي يعرف باسم بودنشتد ، وذلك الاختصاصي في علم جمال الميازيب ، فريدريش فيشر ، هما هوراس وفرجيل غليوم الاول (٤٢) .

---

(٣٩) ملك بروسيا ، ثم امبراطور المانيا . «م»

(٤٠) مولوخ او مولك : معبود الوثنيين الامونيين والقرطاجيين ، كانوا يقدمون له اولادهم ذبائح يطرحونها في النار . «م»

(٤١) هـ. م. هندمان (١٨٤٢ - ١٩٢١) : اشتراكي انكليزي مشهور ، من دعاة الماركسية ، لكنه لم يلبث ان تخاصم مع ماركس بسبب ميله الى انتحال افكاره ونسبها الى نفسه . «م»

(٤٢) اشارة ساخرة الى تملق اثنين من الكتاب الالمان لغليوم الاول ، ملك بروسيا (١٨٦١ - ١٨٨٨) وامبراطور المانيا (١٨٧١ - ١٨٨٨) ، وهما فريدريش=

بالمناسبة ! ان صحيفة « كولن زيتونغ » ، مع المقال عن سكوبيليف ، التي بعثت بها الي ، فيها ما يثير الاهتمام حقا .

ان هذه الخربشة لن تذهب اليوم (السبت) لانه لا توجد « بواخر » الى مرسيليا ايام الاثنين والاربعاء والسبت ؛ لكن ثمة باخرة تغادر بصفة استثنائية الجزائر يوم الاحد في الساعة الواحدة من بعد الظهر ، ولهذا ينبغي وضع الرسائل في البريد ابتداء من الساعة ١١ صباحا (الاحد) . ويبعث اوتيل فكتوريا في ساعة مبكرة من يوم الاحد بالغلام الذي يحمل الرسائل . اما في الايام الاخرى ، وحينما تكون هناك بواخر من الجزائر الى مرسيليا، فانها تنطلق في الساعة ½٥ عصرا .

لكني حرصت على أن تذهب هذه الاسطر في الغد ، لان الفحص التنصتي الاخير الذي اجراه لي د. اسطفان كان ايجابيا جدا .

افضل التحيات الى الجميع .

مغربيك

(١٣)

رسالة الى لورا لافارغ في لندن

الخميس ١٣ نيسان ٨٢

عزيزتي كاكادو

انني اؤنب نفسي لانني لم اكتب اليك ، وان لم تكن هناك

= بودنشتد وفريدريش تيودور فيشر . وكان هذا الاخير هيغليا ، ولهكتابفي علم الجمال من اربعة اجزاء . «م»

انباء خارقة للمألوف تروى . ما اكثر ما افكر بك ، عندما كنت تأتين الى ايستبورن ، قرب سرير جيني (٤٣) ، مسلية بزياراتك اليومية ذلك المتأفف الغاضب اولد نك . لكن يجب ان تعلمي ، يا طفلتي العزيزة ، ان فرميه كان في اجازته الفصحية هذا الاسبوع والاسبوع الفائت . منزله يقع في شارع ميشليه (٤٤) (هكذا يسمى احد اجزاء شارع مصطفى الاعلى) ، عند سفح التل المطل على اوتيل فكتوريا . والقدوم الى هنا لا يعدو ان يكون بالنسبةاليه قفزة برغوث ، حتى ولو اضطر الى اللجوء الى التسلق ، لانه لا وجود لدرب مشقوق يقود الى الاعلى . وبالفعل ، لقد حاصرني طيلة تلك الفترة بزياراته ، حارما اياي على هذا النحو من فترات بعد الظهر ومن مشاريعي الراسخة للتراسل . بالمناسبة ، ان السيد فرميه هذا ليس بالزائر المستكره ، وهو لا يخلو من روح نكتة . ولما كنت قد اعرته اعداد Egalité و Citoyen ، كي يقرأها ، فانه ما توقف لدى عودته عن الضحك من « ارهاب المستقبل » بقلم غيد ، نظرا الى ان حبر المطبعة بتر ، بضرب من الاستباق ، رأس آخر اعداء البورجوازيين .

فرميه لا يحب الجزائر : فالمناخ لا يوائمه ، مثلما لا يوائم اسرته (نوبات حمى متواترة ، الخ) بالرغم من ان جميع افراد هذه الاسرة هم من « اهل البلاد » ابتداء بالسيدة الزوجة . بيد ان مرتبه كقاض لا يكاد يكفيه ، وهذا مع انه يعيش حياة متواضعة للغاية . فالحياة غالية على الدوام في عاصمة اية مستعمرة . وهو

---

(٤٣) اقام ماركس في ايستبورن في حزيران ـ تموز ١٨٨١ مع زوجته جيني التي توفيت في العام نفسه . «م»

(٤٤) يعرف اليوم باسم شارع ديدوش مراد . «م»

يقر بشيء واحد وهو انه لا وجود في اية مدينة أخرى ، هي في الوقت نفسه مقر الحكومة المركزية ، لمثل تلك الحرية في العمل والتنقل : فالشرطة مقصور تعداد افرادها على الحد الادنى الضروري ، واستهتار عام منقطع النظير بقواعد السلوك ، والعنصر المغربي هو الذي ادخل هذه الاعراف (٤٥) . وفي الواقع ، انهم لا

---

(٤٥) بالرغم من ان فرميه لم يكن عنصريا على شاكلة سائر المعمرين ، الا ان الصورة التي ينقلها الى ماركس عن الجزائر لا تخلو من تحيز كولونيالي وان على الطريقة « الاشتراكية » . ففي الوقت الذي يتحدث فيه فرميه عن « استهتار عام بقواعد السلوك » ويحمل فيه « العنصر المغربي » مسؤولية ذلك ، ويندد بقلة عدد افراد الشرطة ، وان اشار الى انها تمارس التعذيب لانتزاع الاعترافات من العرب ، كانت صحف المعمرين الاوروبيين وعرائضهم تطالب بتطبيق « قانون الحل الاميركي » على اهالي البلاد . كتب معلق في صحيفة « المستقل » L'indépendant : « ينبغي تسليح المعمرين بقانون يشبه قانون السحل كما في اميركا ، وما نحتاجه هنا هو قانون يبث في قلوب اهالي البلاد رعبا شافيا . كفانا عاطفية ، ان ملكوت المسدس سيبدأ ! » وكتبت صحيفة «بريد وهران» Le Courrier d'Oran في ٢٤ ايار ١٨٨٢ : « ازاء شعب دائب التمرد ، لا نعرف من سياسة افضل غير تلك التي تبناها موسى حيال عرب مديان . فقد امر بابادة الذكور جميعا ، ولم يحتفظ الا بالعذارى اللائي اباحهن لجنوده . وقد يبدو هذا الاسلوب وحشيا في نظر الناس القصيري النظر ، ولكنه كان في الواقع ذكيا » . وكتبت صحيفة Le Moniteur de l'Algérie في ٢٥ ايلول ١٨٨٢ : « اننا نطالب بالحاح حكومتكم الابوية ان ترصد لنا اعتمادا كبيرا لا لغرض الا كيما نتمكن من دفع جوائز ثابتة بمقدار ٥ فرنكات عن كل رأس بدوي مذكر او مؤنث » .

وظاهر للعيان ان فرميه ما كان ينقل اصداء اشباه هذه الكتابات وهذا المناخ العنصري الا مخففة ، ولن يصفها الا بأنها « سوء فهم » . «م»

يقبلون اي تبعية ، فلا هم بـ « رعايا » ولا هم بـ « مسوسين » ، ولا يعترفون بأية سلطة الا في الشؤون السياسية ، مما يستثير لدى الإوروبيين سوء فهم خطير . قليل من رجال الشرطة فيمدينة الجزائر ، ثم ان معظمهم من الاهالي .

ولكن نظرا الى هذا الخليط من العناصر المنتمية الى قوميات شتى وذات الطبائع غير المتميزة بسمو الذمة ، فكثيرا ما تقع مصادمات لا مناص منها يحتفظ اثناءها الكاتالونيون بسمعتهمالتي اشتهروا بها قديما : فزنانيرهم البيض او الحمر التي لا يحملونها ، كالفرنسيين ، تحت ملابسهم ، وانما كالمغاربة على مدار معاطفهم ، كثيرا ما تخفي على شكل « دبابيس مأمونة » .. خناجر طويلة يتقن ابناء كاتالونيا اولئك فن « استعمالها » بسهولة ، وبتجرد لبق ، ضد الايطاليين والفرنسيين ، الخ ، والاهالي . وفي هذا الصدد ، القي القبض قبل بضعة ايام في محافظة وهران على عصابة من مزوري النقود ، وبينهم رئيسهم ، وهو ضابط اسباني سابق ، وقد اتضح ان فرعهم الاوروبي موجود في عاصمة كاتالونيا : برشلونة ! وقد افلت قسم من هذه العصابة من الاعتقال ، ولاذ بالفرار الى اسبانيا . هذا الخبر وغيره من الاخبار، حصلت عليه من فرميه . وقد تلقى هذا الاخير من الحكومة الفرنسية عرضين مجزيين : اولا ان يذهب الى كاليدونيا الجديدة حيث سيكلف باستحداث نظام قضائي جديد ، بمرتب ١٠٠٠٠ ف (تدفع له ولاسرته نفقات السفر ، ويكون له هناك مسكن وظيفي مجاني) ، او ثانيا ان يذهب الى تونس حيث سيشغل في القضاء مرتبة اعلى من مرتبته هنا وحيث ستتوفر له شروط انسب بكثير. وقد منح مهلة لاتخاذ قرار ، ولسوف يقبل بأحد هذين الاقتراحين (٤٦) .

---

(٤٦) سيذهب فرميه الى تونس . وفرميه باسمه الشخصي ماري ـ ليوبولد =

من السيد فرميه انتقل بالطبع الى الطقس ، لانه لا يترك سانحة تمر من دون ان يلعنه . منذ اثنين الفصح (ضمنا) لم تفتني نزهة صباحية واحدة ، بالرغم من ان نزوات نيسان لم تقف الا الامس (الـ ١٢) واليوم . بالامس ، وبالرغم من اننا كنا نعاني

= من مواليد فاندوم ١٨٤٠ ، تخرج من كلية الحقوق عام ١٨٦٢ ، وكان من اعضاء حركة المعارضة الطالبية في عهد الامبراطورية الثانية ، تلك المعارضة التي تكونت تحت تأثير برودون وكانت ذات نزعات اممية وكان من جملة المنضوين تحت لوائها شارل لونغيه وبول لافارغ . وقد جذبه عالم الشعر والصحافة ، وصدر عليه حكمان بالسجن (لمدة ثلاثة اشهر، ولمدة ستة اشهر) بسبب مقالاته .

لكنه رغم آرائه المناوئة للامبراطورية الثانية حصل على منصب في سلك القضاء في الجزائر ، اولا في الداخل حتى عام ١٨٧٩ ، وبعدئذ في مدينة الجزائر . وبفضل صداقاته « الجمهورية » كلف بدراسة عن رسوم المحاكم بدلا من ممارسة عمله المضني نسبيا كقاضي صلح . وكان في اثناء اقامته في بلدة العروش قد تزوج من امرأةمناسرة يهودية من مدينة قسطنطينة . وقد عاد عليه هذا الزواج ببعض المتاعب في الوسط الكولونيالي الاوروبي . وفي تونس شغل منصب رئيس المحكمة المختلطة ، وجمع ثروة صغيرة وطبق بين ١٨٨٦ و١٨٩٦ القانون العقاري المشؤوم الذي ندد به ماركس كقانون يرمي الى تجريد الاهالي من املاكهم بحجة تحويل ملكية الاراضي الى ملكية فردية. وقد اقرت له الحكومة الفرنسية بحسن خدماته حين منحته، بتوصية من شارل لونغيه ، المستشار العام ، وسام جوقة الشرف . واحيل على التقاعد عام ١٨٩٦ . وقد كان تأثيره على ماركس في الحقبة الجزائرية من حياته كبيرا لانه ــ وهو العاجز والمحاصر بسوء الطقس ــ رأى الجزائر بعيني قاضي الصلح فرميه . «م»

من ريح شلوق خفيفة ، بلغ الطقس ذروة في التحسن : ففي الساعة ٩ صباحا (الـ ١٢) ، كانت درجة الحرارة في الظل ١٩٫٥°، وتحت الشمس ٣٠° . وبالرغم من نزهتي في الصباح (١٢ نيسان) ، تنزهت بعد الظهر في مدينة الجزائر كيما اتأمل المدرعة الروسية « بطرس الاكبر » التي دلفت الى الميناء قبل بضعة ايام .

الدائرة الرسمية للارصاد الجوية تعلن عن تقلبات مناخية كبيرة في ١٥ – ١٦ نيسان (مع عاصفة) ، وفي ١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ نيسان ، ومع هذا تبقى باقي ايام نيسان جميلة ، لكن يخشى في الوقت نفسه ان يتحول الطقس في شهر ايار على الفور ، وتعويضا عن غياب ربيع جزائري حقيقي (لان الربيع لم يبدأ الا بالامس) ، الى قيظ لا يطاق . ومهما يكن من امر ، فانني لا احرص على ان اكون موضوع اختبار لمحطة الرصد الجوي . ونظرا الى الطابع غيرالمألوف بالمرة الشهور الاربعة والنصفالاخيرة، فلا أحد يقدر ان يتكهن بما لا تزال الجزائر تخبئه لنا . ان عددا كبيرا من اهل الرأي والفطنة (وبينهم « رانك » (٤٧) الشهير) قد غادروا امس الاول الشطآن الافريقية . وانا لن ابقى الا الى حين ينبئني د. اسطفان ان الجانب الايسر استرد عافيته بصرف النظر عن ندب ذات جنب قديمة ، وهو ندب يعرفه بلا ريب الدكتوران العالمان دونكان وهيوم . والشيء المزعج هو السعال الذي يأبى ان يزول حتى ولو لم يتعد بقائه حدودا معتدلة . ورغما عن كل شيء فان الوضع يبعث على الضجر في كثير من الاحيان .

مقاطعة محببة : دقات على الباب ، تفضل ! السيدة روزالي

---

(٤٧) آرثر رانك (١٨٣١ – ١٩٠٨) : صحفي سياسي تقلب بين البلانكية والانتهازية والراديكالية . «م»

(احدى الارواح الطيبة التي تقوم على خدمتنا) تحمل الي رسالة منك، يا عزيزتي كاكادو، ورسالة طويلة من الغاسكوني المقدام يظهر على ورقها وعلى مغلفها الخاتم الرسمي: l'Union Nationale (٤٨).

يبدو ان العملية قد نجحت هذه المرة . انها ليست واحدا من تلك المشاريع التي يرعاها السيد ش. هيرش .. صحيح من جهة اخرى ان ابتعاد عزيزتي كاكادو قد اقترب بنتيجة ذلك موعده ! وآمل ألا يتم حالا . وانه لعزاء نسبي لي ان تكون الخالة كاكادو ، بالنسبة الى جيني واولادها ، مصدر فائدة جلى ، وعلاوة على ذلك ؛ لا شيء يرغمك على البقاء في لندن طوال السنة . فباريس قريبة جدا – . بالمناسبة ، هل ارسل لافارغ الى بطرسبورغ تتمة المقال ؟ (لست ادري ما كان مصير الارسالية الاولى) . انه لفي غاية الاهمية ألا ينقطع الاتصال بنقطة الاستناد البطرسبورغية ، فأهميتها ستتعاظم يوما بعد يوم ! حتى بالنسبة الى من هو مراسلها !

مقاطعة ثانية : الساعة الآن الواحدة بعد الظهر ، وقد وعدت بأن اذهب مع السيدة كاستلاز وابنها ونزيلة اخرى من نزلائنا السيدة كلود (من نوشاتل) لمشاهدة « حديقة الحمة » او « الحديقة التجريبية » . وينبغي ان نعود قبل العشاء (الساعة ٦ من بعد الظهر) ، وبعد مجهود كهذا لم اجازف قط حتى الآن بالعكوف على الكتابة . اذن سأتوقف حتى الغد . ولكن مساهمة فقط في زيادة معلومات كاكادو ، اسمح لنفسي بأن اشير الى انه في الحمة على وجه التحديد حدث في ٢٣ تشرين الاول ١٥٤١ انزال ٢٤٠٠٠ جندي بقيادة الامبراطور شارل الخامس (او كارلوس

---

(٤٨) كان لافارغ (الغاسكوني المقدام) يشتغل يومئذ في شركة تأمين بذلك الاسم. وكان قد بعث الى مجلة روسية تصدر في سان بطرسبورغ باسم « اوستوي» بمقال ظهر في آذار – حزيران ١٨٨٢ عن الملكية العقارية في فرنسا . «م»

الاول ، كما يدعوه الاسبان) ، وبعد ٨ ايام من ذلك التاريخ كان عليه ان يبحر مع البقية الباقية من جيشه المدمر على المراكب التي نجت من عاصفة يوم الـ ٢٦ ، والتي انضم اليها بشق الانفس دوريا في ماتيفو . وهذا الموضع الاخير ، الذي عنده ينتهي خليج الجزائر، اي رأس ماتيفو ، قبالة الجزائر من الشرق ، استطيع ان اراقبه بنفسي ، بمنظار قوي ، من رواق اوتيل فكتوريا .

الجمعة ، ١٤ نيسان

أبدأ هذه الرسالة في عين اللحظة التي اضفت فيها بضعة اسطر الى ما تقدم ، أي في حوالي الساعة الواحدة من بعد الظهر . لقد كانت نهاية نهار امس بمثل جمال الاول من امس . فالسهرتان كلتاهما ، يومي ١٢ و١٣ (في حوالي الساعة ٨) ، كانتا دافئتين ـ وهذا شيء غير مألوف ـ ولكن في الوقت نفسه بليلتين (نسبيا)، اذن رائعتين حقا . الحرارة هذا الصباح « ثقيلة » بعض الشيء ، ومنذ زهاء ساعتين تهب ريح عنيفة ، وهي في ارجح الظن « العاصفة » التي اعلنوا لنا عنها البارحة ليومي ١٤ و١٥ .

بالامس ، في الساعة الواحدة من بعد الظهر ، نزلنا الى مصطفى الادنى حيث حملنا الترامواي الى حديقة الحمة او « الحديقة التجريبية » التي تستخدم كمنتزه عام تعزف فيه عند الحاجة موسيقى عسكرية ، وكمشتل لانبات ونشر النباتات المحلية ، واخيرا لاجراء تجارب نباتية علمية وكحديقة أقلمة . وتشغل هذه الحديقة مساحة واسعة جدا من الارض ، قسم منها جبلي ، والقسم الآخر سهلي . وحتى يشاهد المرء كل شيء بالتفصيل ، فلا بد له ان يمضي فيها على الاقل يوما بكامله ، وان يفعل ذلك بصحبة خبير ، وعلى سبيل المثال صديق فرميه ، الفوري السابق ، السيد دوراندو ، استاذ علم النبات ورئيس

شعبة « نادي الألب الفرنسي » التي يتولى قيادة رحلاتها النظامية كل يوم احد (لقد اسفت كثيرا لان حالتي الجسمانية وتحظير الدكتور اسطفان القاطع لم يسمحا لي الى الآن بالمشاركة في تلك الرحلات التي دعيت اليها ثلاث مرات) ـ . اذن ، قبل ان ندلف الى « الحديقة التجريبية » ، احتسينا قهوة ، في الهواء الطلق بالطبع ، في مقهى « مغربي » . والمغاربة يعدون قهوة ممتازة ؛ وقد جلسنا على مقاعد بلا ظهر . وعلى طاولة من الخشب الخشن ، كان ما يقارب اثني عشر زبونا مغربيا ، نصفهم العلوي منحن الى الامام وسيقانهم متصالبة ... (٤٩) ، يحتسون على مهل «ركواتهم» الصغيرة (لكل واحد منهم ركوته) ، وهم يلعبون بالورق (انتصار احرزته الحضارة عليهم) (٥٠) . كان المنظر مدهشا : كان بعض اولئك المغاربة يرفل في ثياب انيقة بل فاخرة ، وكان بعضهم الآخر يرتدي ما سأجرؤ على وصفه بانه بلوزات ، كانت فيما غبر من الصوف الابيض وحالت اليوم الى مزق وأسمال ـ لكن مثل هذه الاحتمالات من يسر او عسر لا يمكن ، في نظر المسلم الحق ، ان تقيم من فروق بين ابناء محمد . وهي لا تؤثر في شيء على المساواة المطلقة التي يظهرونها في علاقاتهم الاجتماعية (٥١) . وانما عندما تهن عزائمهم يعون تلك الفروق . اما فيما يتعلق بكراهية المسيحيين

---

(٤٩) مقطع مهترىء ، غير مقروء في النص المخطوط . «م»

(٥٠) خطأ : فورق اللعب الشرقي سابق بكثير للحضارة الغربية . «م»

(٥١) اماركس أذن مثالي ؟ او على الاقل غير مادي ؟ ألا يقر بأن الايديولوجيا ـ هنا الدين ـ تتمرد على الواقع (تفاوت الثروات) وعلى العلاقات الاجتماعية الواقعية ؟ لكن صورة ماركس المادوي ، ماركس الطبقوي ، ماركس الذي يختزل الوعي الانساني الى شروطه المادية فحسب ، هي صورة حديثة =

وبالامل في احراز النصر في خاتمة المطاف على هؤلاء الكفار ، فان ساستهم يعتبرون بحق ان هذا الشعور وممارسة المساواة المطلقة (لا في رغـــد العيش او المركز الاجتماعي ، وانما في الشخصية) يحفزانهم على التمسك بالكراهية وعدم التخلي عن الامل (ومـع ذلك ، فأمرهم الى هلاك بدون حركة ثورية) .

بعض ملاحظات مقتضبة بصدد القسم المستوي من «الحديقة التجريبية » : فهي مقسمة بثلاثة ممرات عظيمة تقطعها طوليا ،

= ومتأخرة لماركس ، صورة « ماركسية » بقدر ما انزلت «الماركسية» منزلة العلم — وهي عين الماركسية التي كان قد تبرأ منها بقوله « كل ما اعرفه هو انني لست ماركسيا » ! ام لعل « خطأ » ماركس — هنا مثاليته — له تفسير ابعد من ذلك واغرب ؟ كأن يقال مثلا ان تصوره المادي للتاريـخ لا ينطبق الا على الحضارة والعقل الاوروبيين . اما الآخرون ، امـــا غـير الاوروبيين ، فلا بد لفهمهم وفهم « عقلهم » و « حضارتهم » من تصورات وقوانين اخرى . فالواقع ، مثلا ، مقولة اوروبية . ولا عجب بالتالي ان يظهر المسلمون نزعة الى المساواة المطلقة في علاقاتهم الاجتماعية العالقة في الواقع على تفاوت مادي شديد . لا عجب لانهم لا يرون ولا يستطيعون ان يروا الواقع . لا عجب لانهم غير اوروبيين ! وهنا تضيع الحدود ولا نعود ندري من هو المتمركز على ذاته اوروبيا : أهو ماركس الذي سقط في تفسيره لـ « عقل » المسلمين الجزائريين في فخ المثالية ؟ ام هو غير الاوروبي الذي يتصور ان الواقع مقولة اوروبية ؟ ام هو المسلم الظافري الذي سيقول ان ماركس نفسه اضطر الى الخروج على قواعد تصوره المادي للتاريخ حتى يفهم واقعة واحدة من وقائع الحياة الاسلامية ؟ ان الباب مفتوح للاحتمالات جميعا . والشيء المهم ليس ان نفرض جوابا ، بل ان نتحرر ، في البحث عن جواب ، من الخوف من انتهاك القدسيات ، سواء أتسمت بـ «الماركسية» ام « الاسلامية » ام بـ « العالم — ثالثية » . «م»

وقبالة المدخل الرئيسي يوجد « ممر الدلب » ، ثم « ممر النخل » الذي يفضي الى واحة من ٧٢ نخلة هائلة الحجم والذي يحده السكة الحديدية والبحر ، واخيرا يأتي « ممر » المغنوليا وضرب من شجر التين (Ficus Roxburghi) . وهذه الممرات الثلاثة الكبرى تقطعها بدورها ممرات اخرى كثيرة مصالبة ، نظير « ممر الخيزران » الطويل الاخاذ ، و « ممر النخل القنبي » ، وممر الشجر – التنين ، والاوكالبتوس (شجرة صمغية ، زرقاء ، من تاسمانيا) ، الخ . وهذه الاخيرة تنبت بسرعة خارقة للمألوف .

بديهي انه لا يمكن ان يوجد هذا النوع من الممرات في « حدائق الأقلمة » الاوروبية .

كانت الموسيقى العسكرية تعزف عصر هذا اليوم في مستديرة كبيرة تحيط بها اشجار الدلب ، وكان قائد الفرقة الموسيقية ضابط صف يرتدي الزي الفرنسي المعتاد ، بينما كان الموسيقيون بالمقابل (من الجنود الانفار) يرتدون سراويل حمرا فضفاضة (قصّة شرقية) ، وينتعلون احذية من قماش ابيض تزرر حتى اسفل البنطال ، ويعتمرون على رؤوسهم طرابيش حمرا (٥٢) .

من الحديقة لم اذكر (بالرغم من ان انفي استقى منها في بعض الاحيان لذة كبيرة) اشجار البرتقال والليمون ، وكذلك اللوز والزيتون ، الخ ، واقل من ذلك بكثير الصبار والمقر الذي ينبت بريا سواء أفي الريف (كالزيتون واللوز البري) ، أم حيث نقطن .

أيا تكن المتعة التي وجدتها في تلك الحديقة ، فلا مناص لي من أن الحظ ان هذه النزهة وغيرها من النزهات المماثلة ترتفق

---

(٥٢) يصف ماركس هنا زين الزواويين . «م» .

بشيء كريه، وهو غبار الحكك الذي لا مهرب منه . وبالرغم من انني شعرت بتحسن بعد الظهر ، فقد سبب لي التهيج الناجم عن الغبار ، بعد اوبتي وليلا ، ضيقا وسعالا .

انني انتظر د. اسطفان اليوم ، لكني لا استطيع انتظارا لارسال هذه الاسطر . وسوف اكتب لفريد فيما بعد عن هذه الزيارة .

• ختاما ، وكما كان يقول ماير من شوابن : لنر الى الامور من وجهة نظر تاريخية اكثر سموا بقليل . ان اصحابنا العرب البدو (لقد انحطوا من اكثر من ناحية الى الدرك الاسفل ؛ لكن الصراع في سبيل الوجود حفظ لهم بعض السجايا الراسخة) يتذكرون ان شعبهم أنجب فيما غبر فلاسفة وعلماء كبارا ، الخ ، وهم يعلمون ان الاوروبيين يسخرون منهم بسبب جهلهم الحالي . ومن هنا كانت الحكمة العربية الخرافية الوجيزة التالية ، وهي قصة بليغة الدلالة تماما .

تأهب عابر سبيل لعبور نهر جامح في قارب صغير . وصعد فيلسوف يرغب في العبور الى الضفة المقابلة . فدار بينهما الحوار التالي :

الفيلسوف : يا عابر السبيل ، هل تعرف التاريخ ؟

عابر السبيل : كلا !

الفيلسوف : اذن فقد أضعت نصف عمرك .

ثم اردف الفيلسوف يقول : هل درست الرياضيات ؟

عابر السبيل : كلا !

الفيلسوف : اذن فقد اضعت أكثر من نصف عمرك .

وما كاد الفيلسوف ينطق بهذه الكلمات حتى قلبت الريح القارب ، وسقط شاغلاه ، الفيلسوف وعابر السبيل ، في الماء .

عابر السبيل ، صائحا : هل تعرف السباحة ؟

الفيلسوف : كلا !
عابر السبيل : اذن فقد ضاع عمرك كله .
ان هذه القصة الخرافية سيكون لها بالنسبة اليك بعض شذى عربي (٥٣) .
سلامات وتحيات .

اولد نك

(اجمل التحيات للجميع) .

(١٤)

رسالة الى انجلز

الثلاثاء ١٨ نيسان ٨٢

العزيز فريد
تلقيت بالامس رسالتك ، وكذلك رسالة توسي وارسالية « قيصر » (٥٤) .
في رسالتي الاخيرة الى لوريت ، بشرتها ببزوغ « اجمل يومين » ، لكن قبل ان اختم الظرف هبت ريح الشلوق Sirocco (في نشرات الارصاد الجوية الرسمية ، كما في سائر المطبوعات الفرنسية ، تكتب الكلمة تارة بـ C واحدة ، وطورا بـ ٢ C) ، وكان صفيرها تدشينا بالنسبة الي لـ « التقلبات المناخية الكبيرة » التي

---

(٥٣) القصة في الواقع مشتركة بين امم عديدة اكثر منها عربية خالصة . «م»
(٥٤) اشارة الى مبلغ من المال حوله اليه انجلز عن طريق « بنك قيصروشركائه»«م»

كانوا قد توقعوها . ولقد اعترفت للورا بأنني سئمت من هـذه المقالب ، وفي الواقـع انا « سئم من افريقيا » ، وقد عقـدت العزم على ان أدير ظهري للجزائر بمجرد الا تعود للدكتور اسطفان حاجة بي .

من ١٤ نيسان (بعد الظهر) الى ١٧ نيسان : عصفات ريح ، عاصفة ، زخات ، شمس حارقة ، تنقل مستمر (بين ساعـة واخرى تقريبا) من البرد الى القيظ . الساعات الاولى من هـذا الصباح كانت رائعة : لكن الآن : في الساعة العاشرة ، تعزف الريح من جديد لحنها الخشن . دائرة الارصاد الجوية في نشرتها – او بالاحرى في تنبؤاتها – المنشورة امس تتوقع ليومي ٣–٤ ايـار « تقلبا مناخيا حادا » ، ولكن على الاخص بدءا من ٧–٨ ايـار (وهي في الوقت الحاضر لا تتنبأ الى ابعد من ذلك) ، عـلاوة على هذا تتوقع ، بالنسبة الى الاسبوع الاول من ايار ايضـا ، ما تسميه « حركات زلزالية » (وهذه « الزلزاليات » ترتبـط دوريا بهزات ارضية خفية) .

في يوم ١٦ (الاحد) قدم د. اسطفان . فحص تنصتي للصدر . اعلن : من ذات الجنب لم يبق اثر (من الانتكاسة) ، وبالمقابـل (حتى من الجانب الايسر) فانه اقل رضى عن حالة قصيباتي مما في زيارته الاخيرة . ومع ذلك فقد دهنني بعزم وقوة (من عصر الاحد (١٦ نيسان) ، والليل كله ، الى الساعات الاولى من الاثنين (١٧ نيسان) اتيح لي الوقت الكافي للثناء على عزمه وقوته !) – على كل حال ، وافقني د. اسطفان تماما في الراي وهو ان حالة قصيباتي مرتبطة بالطقس السائد هنا ، وفي شروط كهذه لن يكون لاطالة الاقامة الاثر المرتجى . وهو يعتقد انه سيكون في مستطاعه ان يطلق سراحي في آخر نيسان مع تشخيص مكتوب ، اذا لم يطرأ اثناء ذلك شيء غير متوقع ؛ وعلى سبيل المثال اذا آل الطقس الى تحسن كبير ، او من ناحية اخرى ، وهذا بعيـد الاحتمال ، اذا

تدهورت صحتي . اذن ، وفي غير هذين الحالين ، سأحط الرحال في مرسيليا يوم ٢ ايار بواسطة الـ « سعيد » والقبطان ماسيه ، (وهو شخص ظريف للغاية) وهما نفسهما اللذان كانا قد اقلاني الى الجزائر . ومن مرسيليا ، سأذهب لتجريب حظي في كان او نيس او مانتون. اذن عليك الا ترسل من لندن رسائل او قصاصات صحف الا اذا تم ارسالها عقب استلامك هذه الاسطر مباشرة . واذا طرأ اثناء ذلك تغير ما على قراري ، فسأكتب اليك من هنا للحال .

اخشى الا يصل المركب الى الجزائر الا بعد ان اكون قد جلوت ، انا وآل كاستلاز ، عن افريقيا ، فالجميع يستعدون للهرب . ولا بد ان اعتذر لك عن هزال هذه الرسالة . فليلة ١٦ الى ١٧ نيسان لم اذق طعما للنوم بسبب قوة الدهن ، وليلة ١٧ الى ١٨ لم اتوجع لان المرض قام بواجبه منذ الساعة ٧ من صباح امس . لكن الحكة ، الناجمة غن اعادة تكوّن الجلد ، كلفتني ليلة ثانية بلا نوم . ولما كنت ، علاوة على ذلك ، قد قمت في ساعة مبكرة جدا بنزهتي الصباحية (وطوال ساعات) ، فأنت تفهم (٥٥) (لم اعد اعرف كيف تكتب هذه الكلمة بالهولاندية ، لكنك تفهم (٥٥) ! ــ الشيطان يعلم ما دخل ذلك بـ « الفهم » ــ انا لا ازال اسمع هذه الكلمة في زالتبومل من فم زوجة الخوري روثهاوس ، المطلقة الآن والتي حلت محلها ابنة عمتي) ، بكلمة واحدة ، انت تفهم انه علي ان اذهب للاستلقاء وان احاول الاحتيال على شيء من النوم للتعويض . ثم : نم ، ماذا تريد اكثر من ذلك ! لكن لا بد اولا ان اروي لك المقلب الخبيث الذي اوقعت فيه السلطة الفرنسية بلص

---

(٥٥) بالهولاندية في النص .«م»

مسكين ، بقاتل محترف عربي مسكين . ففي النهاية والنهاية فقط، كما كان يقول اللندنيون الانذال ، وفي اللحظة التي كانوا يهمون فيها بارسال الخاطىء المسكين الى العالم الآخر ـ اكتشف انهم لن يعدموه رميا بالرصاص ، بل سيقطعون رأسه بالمقصلة ! وهذا خلافا لما كان تم عليه الاتفاق . خلافا للوعد المقطوع . وعلى الرغم من الاتفاق المعقود قطعوا رأسه بالمقصلة . لكن ليس هذا كل شيء . فأهله ينتظرون ، كما سمح بذلك الفرنسيون حتى الآن ، ان يسلم اليهم الجسم والرأس ، كيما يلصقوا الثاني بالاول ويدفنوا بعد ذلك « الكل » معا . ولكن لا ! صراخ ولعن ولغط ، فالسلطة الفرنسية رفضت رفضا باتا وللمرة الاولى ! والآن اذا وصلت الجذع الى الجنة ، فسيسأل محمد : اين اضعت راسك ؟ او كيف اضاع الراس الجذع ؟ اذن لست اهلا لدخول الجنة ! اهرع الى أولئك الكلاب المسيحيين ! ويتأوه الاهل ويعولون (٥٦) .

مغربيك العجوز

اثناء فحص صدري في المرة الاخيرة اخبرني د. اسطفان

---

(٥٦) الخفة التي يروي بها ماركس هذه القصة وروايته من قبلها لـ « نكات » اخرى ، ووصفه على الاخص لرقصة الزنجي والزي الشرقي والمقهى المغربي، كل ذلك يشكل مساهمة في « الفولكلور الكولونيالي » ، ان لم نقل في « العقلية الكولونيالية » التي تتصور الاخرين وكأنهم ليسوا بشرا لمجرد انهم هم الآخرون .

لنتخيل ان لينين مثلا تحدث عن مسلمي الاتحاد السوفياتي بمثل ما يتحدث ماركس عن مسلمي الجزائر ، فماذا كانت ستكون النتيجة على اتحاد الجمهوريات السوفياتية ؟ ان هذا يصعب تصوره بقدر ما يصعب اصلا تصور لينين وهو يهذر بلغة ماركس هذه . «م»

ــ حتى الآن لم اطرح عليه قط السؤال ــ انه ابن الماني ، وان كان لا يعرف كلمة المانية واحدة . ولقد هاجر والده من لاندو (بالاتينا) الى الجزائر .

(١٥)

رسالة الى انجلز في لندن

الجمعة ٢٨ نيسان ٨٢

العزيز فريد

استلمت رسالتك واعداد « الصحيفة الكولونية » .

هذه الاسطر لاعلامك فقط بانني سأغادر الجزائر في ٢ ايار (الثلاثاء) على ظهر الـ « سعيد » نفسه ومع القبطان نفسه السيد ماسيه ، « النقيب البحري »، اللذين كانا قد جاءا بي الى الجزائر. يوم الاربعاء زرت العمارة الفرنسية المؤلفة من ست مدرعات . وبديهي انني فتشت سفينة القيادة ، « لو كولبير » ، حيث تولى ضابط صف ، وهو فتى صبوح الوجه وذكي ، اطلاعي على كل شيء بالتفصيل ، مع المستندات المؤيدة . وقد قال لي في معرض حديثه، مؤكدا بذلك سمته الفرنسية ، انه مل وسئم من ذلك العمل المضجر وانه يأمل ان يحصل عما قريب على اجازته . ولم نحصل انا ورفاقي (ثلاثة نزلاء في اوتيل فكتوريا معي) على الاذن بالصعود اليها الا بعد نهاية « الخدمة » . وعليه ، فقد شهدنا من الفلك ، اقصد من القارب ، مناورات سفينة القيادة والمدرعات الخمس الاخرى . غدا عصرا ستقام « حفلة راقصة » على ظهر لو كولبير ، ولقد كان بوسعي ، لو شئت ، ان احصل بواسطة فرميه على

بطاقة دعوة الى ذلك الاحتفال ايضا ، ولكن لا وقت لدي . وبالفعل، يوم الثلاثاء (٢٥ نيسان) كانت آخر زيارة لاسطفان . الوشم بالكولوديون انتهى ، وانتكاسة ذات الجنب برئت تماما ، وبالمقابل سأذهب غدا (السبت) عند العصر اليه كيما يسلمني تشخيصا مكتوبا وكيما اودعه . الطقس الآن في اكثر الاحيان حار جدا ، لكن العاصفة دامت في الواقع مدى الاسبوع ، مع هبات لريح الشلوق (تعصف الشلوق ليلا بلا انقطاع ، ونهارا على هبات) . وهذا ما يفسر بقاء سعالي . فلأنتهز السانحة اذن للهرب من الجزائر .

اجمل السلامات للجميع .

مغربيك العجوز

بالمناسبة : بسبب الشمس تخلصت من لحيتي الشبيهة بلحية نبي ومن شعري المستعار . لكن لما كانت بناتي يفضلنني به ، فقد اخذت صورا شمسية لي قبل ان اضحي بشعري على مذبح حلاق جزائري . وستصلني الصور السلبية يوم‌الاحد القادم (٣٠ نيسان) . وسأبعث اليك بعينات منها من مرسيليا (٥٧) . ولسوف ترى ان معالم الارهاق ما تزال بادية علي ، نظرا الى ان الرسم بالكولوديون استمر متواليا ٨ اسابيع بكاملها (اسلوب‌لويس البافاري) (٥٨) (وفي الواقع لم يتح لي يوم واحد من راحة كاملة) .

---

(٥٧) من سوء الحظ اننا لا نملك اية صورة شمسية لماركس في الجزائر لا بلحية وشعر مستعار ، ولا بدون لحية وشعر مستعار . «م»

(٥٨) الاسلوب الذي يكتب به ماركس بالالمانية رديء . وكان لويس الثاني ملك بافاريا قد نظم قصائد شذ فيها عن بعض قواعد اللغة الالمانية . «م»

(١٦)

رسالة الى جيني لونغيه

٢٨ نيسان ٨٢

طفلتي العزيزة جدا ..

سطران لا اكثر . اعتقد ان جوار البحر هو وحده الذي يمكن ان ينفع هاري المسكين . وعليك ، اذا أمكن ، أن تأخذيه هو واخوته بلا تأخير الى نورمانديا . ومهما يكن من امر ، فــلا تتصوري بحال من الاحوال انني سأرجـــع الى انكلترا بدون ان اعرّج لرؤيتكم انت واحفادي ، في نورمانديـــا او باريس او اي مكان آخر .

اما عن صحتي فهي في تحسن ، والا ما كان د. اسطفـــان ليسمح لي بمغادرة « افريقيا » . اعتقد ان بضعة خمسة عشر يوما ستكون كافية لـ « المرحلة الانتقالية » في الكوت دازور .

افضل تمنياتي ، يا طفلتي العزيزة جدا .

اولد نك (٥٩)

---

(٥٩) غادر ماركس الجزائر في الموعد المحدد . ومن مرسيليا سافر الى مونتيكارلو حيث عالجه الدكتور كونمان الذي لاحظ حدوث انتكاسة جديدة في ذات الجنب والتهاب مزمن في القصيبات الرئوية . وبعد بضعة اسابيع سيزور ماركس باريس (ارجنتاي) من دون أن يبرأ تماما . وبعد ذلك بعشرة اشهر سيسلم الروح . «م»

الفهـــرس

الماركسية والجزائر	جورج طرابيشي	٥
عبد القادر	فريدريك انجلز	١١
الجزائر	فريدريك انجلز	١٦
بيجـو	كارل ماركس	٣٦
الجزائر : مدرسة عسكرية	فريدريك انجلز	٤٥
حول نظام ملكية الارض في الجزائر	كارل ماركس	٥٢
رسائل الجزائر	كارل ماركس	٨٠

هذا الكتاب

لا عجب ان تكون نصوص ماركس وانجلز هـذه عـن **الجزائر** لم تترجم سابقا الى العربية ، وما ترجم منها مرّ عليه مقص الرقيب ، فهذه النصوص ذات طابع « محرج » . فهي تثبت ان حقل رؤيـة ماركس وانجلز كان اوروبيا الـى حـد بعيد ، وان الجزائر كانت في نظرهمـا من عالم مغاير ، عالم « الآخر » . ومن ثم فان فتحها من قبل الفرنسيين كان عملا « موائما لتقدم الحضارة » .

وبترجمة هذه النصوص ، وبوضعهـا في اطارهـــا التاريخي ، يمكن ان نفهم الجذور الاولى لسوء التفاهم الكبير بين الورثة الاوروبيين الماركسية وبيـن حركـات التحـرر القومي في آسيا وافريقيا .

الثمن : ٦ ل.ل.
أو ما يعادلها

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت